من أحاديث الآداب

آداب المؤمن إزاء ربه

إن للمؤمن أدبًا إزاء ربه ﷻ، وإزاء أسمائه وصفاته، فمن أدبه إزاء الله ألا يشرك مع الله في عبادته أحدًا ولو كان نبيًّا مقربًا أو ملكًا كريمًا، وأما أدبه إزاء أسمائه وصفات فهو أن يؤمن بكل ما ورد في كتاب الله وسنة رسوله من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا. وألا يتعرض إلى تلك الأسماء والصفات بأي تشخيص أو تمثيل أو إنكار أو تعطيل، وأن يؤمن أن الله ﷻ له الكمال الأسنى والمثل الأعلى، وأنه هو مالك يوم الدين لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن ارتضى وأنه لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه، وأن بيده الخير والنعمة وخزائن الرزق والرحمة، وأن الأرض في القيامة قبضته، والسموات مطويات بيمينه، وأنه يقبض الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟!

ثم إن هذا الإله العظيم الواسع لا يمكن أن يُرى؛ لأن الذي يُرى يُحْصَر في جهة، والله ﷻ هو فوق هذا التصور، إنه يعرف بآياته ومخلوقاته، ﴿**لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣].

ثم هو بعد هذا وقبله تُرى عظمته في عظمة خلقه، ويستدل عليه بما خلق وصور وأبدع، فإذا رأيت السماء علمت أن خالقها عليٌّ عظيم، وإذا رأيت البحر علمت أن خالقه واسع كريم.

ثم إن أسماء الله وصفاته نوعان: نوع ينبع من منابع الرحمة والكرم والحلم والجمال، وهذا النوع يمكن أن يتطلع إليه الإنسان ويتخذه مثله الأعلى، ويسمى به رحيمًا كريمًا عادلاً رءوفًا.

أما النوع الآخر؛ فهو الاسم الدال على الجبروت والإبداع والخلق والتصوير والكبرياء، وهذا أمر لا يشركه فيه شريك، ولا يعلم له فيه سمي كالجبار والمتكبر والخالق والبارئ والمصور والمنتقم والقابض ومالك الملك ورفيع الدرجات ذي العرش، والمؤمن إزاء عظمة الله كبريائه، وقدره وقضائه تلقاه خاشعًا مستسلمًا راضيًا بالقضاء صابرًا عليه، يرى في هذا راحة لنفسه وسكينة لقلبه وسعادة لروحه.

ومن ثم ترى المؤمن يحب ربه حب من عرفه بآلائه وشكره على نعمائه. هذا وعلى المؤمن ألا يفتأ صابرًا شاكرًا ليظل بين تلكما المنزلتين الكريمتين إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان صبره خيرًا.

وهذه بعض لقطات من السنة الكريمة المطهرة تزيد المؤمن بصيرة بعظمة ربه وعلو شأنه، جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ ﷻ لاَ يَنَامُ، وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ يُرْفَعُ إِلَيْهِ، عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ -وَفِي رِوَايَةٍ: لَوْ كَشَفَهُ لأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**».

والعجيب أن ربنا ﷻ وهو القادر القاهر الجبار والمنتقم يتقرب برحمته ومغفرته وجوده إلى عبده الضعيف، ويتحمل من جهالة الإنسان وكنوده شيئًا كثيرًا، وهذا درس في الحلم عظيم، يقول الله تعالى فيما يرويه عنه نبيه في صحيح البخاري: «**قَالَ اللهُ: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، أَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي لَنْ أُعِيدَهُ كَمَا بَدَأْتُهُ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا، وَأَنَا الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ**»، وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «**قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ، بِيَدِي الأَمْرُ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ**».

والحقُّ أن هذا يقع فيه كثير من الناس ومن الشعراء، فربما سب إنسان آخر فلعن الزمان الذي يعطي الخير لمن لا يستحقه، وهو وإن كان يسب الزمان أو الدهر فإنه في الحقيقة إنما يسب الله الذي يعطي ويمنع ويضر وينفع، وفي مسند أحمد يقول النبي ﷺ: «**لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ ﷻ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ**».

نعم إن كثيرًا من العبيد يعكف على معاصي الله وهو يدبر رزقه وصحته وستره وعافيته، وفي مسند الربيع أن النبي ﷺ قال: «**يقول الله تعالى: يا ابن آدم، أتحبب إليك بالنعم وتتمقت إليَّ بالمعاصي، خيري إليك نازل وشرك إليَّ صاعد، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك كل يوم وليلة بعمل قبيح منك**».

على أن صفة واحدة من صفات الله ﷻ لا يرضاها الله للإنسان بل ويقصمه بها إذا بدرت

منه؛ لأنها من صفات الله التي تفرد بها ألا وهي الكبرياء؛ لأنها من العبد جهالة وعقدة نفسية ووقاحة، والعبد يعرف بدايته ونهاية عمره، يقول الله -تعالى- فيما يرويه عنه نبيه: «**الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما ألقيته في جهنم**».

هذا، وعلى العبد المؤمن أن تكون ثقته فيما عند الله كثقته بما تملك يده لأنه ﷻ جواد كريم يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى لَا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**»، وفي مسند أحمد: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك. فقال عليه الصلاة والسلام: «**نور أنى أراه**».

هذا، وإن الرب ﷻ غيور على حرماته وحدوده وعلى العبد أن يكون وقافًا عند حدود الله مبتعدًا عن انتهاك الحرمات، يقول النبي ﷺ فيما رواه الشيخان: «**لَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ وَلِذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَدٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ**»، وفي صحيح البخاري حديث يوضح مدى حب الله ﷻ لهداية عبده وعظيم مكافأته للذاكرين، يقول رسول الله ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**».

وعلى المؤمن أن يعلم أن الله -تعالى- وإن كان لا يُرى في الدنيا فإنه يُرى يوم القيامة؛ لأن طبيعة الناس في البعث تتغير، ففي الصحيحين أن الناس سألوا رسول الله ﷺ: هل نرى ربنا يا رسول الله يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**هل تضارون الشمس ليس دونها سحاب**، فقالوا: لا يا رسول الله. قال: «**فإنكم ترون ربكم ﷻ يوم القيامة كذلك**»، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**﴾.

وبعد؛ فإذا أردت أن تكون غاليًا محترمًا عند الله فأَغْلِ أوامره، واحترم غيرته؛ لأن منزلتك عنده كمنزلته عندك، فأعزَّ أمر الله يعزَّك الله، وإياك أن يراك الله في أيامه ومواسم تجلياته عاكفًا على المعاصي. يناديك إلى رحابه فتبتعد عن أبوابه؛ لأن العمر فرص ما يضيع منها قد لا يعود أبدًا؛ فكن مستعدًا للقاء الكريم، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

من أحاديث الآداب

الأسرى ومعاملتهم

طلع نور الإسلام على الناس وهم في شريعة غاب، وعيشة ضنك، يسيطر عليها ظلم الأقوياء. تؤكل الأموال فيها بالباطل، وتسفك الدماء بالعدوان، وتغير القبائل بعضها على بعض، فتراهم بين واتر وموتور، وتداس فيها كرامة الضعيف، حتى إذا جاء هذا النور الشافي شرع من الدين ما وصَّى به رسل الله منذ فجر الرسالة، ومدَّ يد العون إلى كلِّ ضعيف ينصره ويقويه حتى ينال حقه، حتى لقد قال سيدنا أبو بكر ﷺ في أول خطبة: «ألا إن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ الحق له، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ الحق منه»، وشرع الإسلام الجهاد وهو حرب شعاره إحقاق الحق لتكون كلمة الله هي العليا، وجعل للحرب آدابًا ذكرناها في حلقات سابقة.

وإني ذاكر هنا - إنْ شاء الله- أحاديث كريمة تتعلق بالأسرى ومعاملتهم ليعلم كل قارئ أن الإسلام سبق كل مواثيق الحضارة الحديثة التي صدرت عن المجتمعات الدولية المتحضرة بأكثر من ألف وأربعمائة عام:

وما أجمل ما قال شوقي -رحمه الله- وهو يتحدَّث عن مشروعية الحرب في الإسلام:

الحَـــربُ في حَـــقٍّ لَـــدَيكَ شَريعَـــةٌ وَمِـــنَ السُّـــمومِ الناقِعـــاتِ دَواءُ

- جاء في صحيح مسلم أن ثمانين مقاتلاً من قريش هبطوا على النبي وصحبه من جبال التَّنعيم عند صلاة الفجر ليلة الحديبية لينالوا من المسلمين غرة ويقتلوهم، وأن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا متيقظين فأحاطوا بهم وأسروهم وجاءوا بهم أسرى إلى رسول الله ﷺ فأمر عليه الصلاة و السلام بإطلاق سراحهم.

- وصحَّ عن رسول الله ﷺ أنه قال لأهل مكة يوم الفتح: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

- وفي حديث أبي موسي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**فكوا العاني** (أي: أطلقوا الأسير)، **وأجيبوا الداعي، وأطعموا الجائع، وعودوا المريض**».

- وفي السيرة النبوية أن زعيم اليمامة ثمامة بن أثال وقع أسيرًا في أيدي المسلمين، فجاءوا

به إلى رسول الله ﷺ، فقال عليه الصلاة والسلام: «**أحسنوا إساره**»، ثم قال: «**اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه**»، ثم قدم لهم النبي الكريم لقحته الخاصة فكانوا يقدمون إلى ثمامة لبنها في الصباح والمساء.

ثم إن النبي ﷺ دعاه إلى الإسلام فأبى وعرض الفداء، وقال للنبي الكريم: اطلب ما شئت من المال، لكن النبي ﷺ مَنَّ عليه وأطلق سراحه بدون فداء، فكان ذلك التصرف الحكيم سببًا في دخوله الإسلام، ومنعه بيع القمح للمشركين في مكة، وكانت نجد مشهورة إذا ذاك بقمحها.

وفي غزوة بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في أسر المسلمين فلحقها أبوها ليفتديها بعدد من الإبل، ولما وصل رأى من أخلاق رسول الله ﷺ ما أعجبه، ثم نبأه الرسول ﷺ أنه خبأ من إبل الفداء بعيرين وأمره بإحضارهما، وإذ ذاك أسلم؛ لأن ذلك الأمر حصل منه سرًّا ولم يطلع عليه أحد، وأسلم معه ولدان له كما أسلمت جويرية -رضي الله عنها- فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها فصارت من أمهات المؤمنين، ومن بركات زواجها أن رسول الله ﷺ أعتق مائة من أهل بيت قومها. وفي هذا تقول عائشة - رضي الله عنها-: ما أعلم أن امرأة كانت أعظم بركة على أهل قومها من جويرية.

وروى مسلم وأبو داود أن قبيلة ثقيف كانوا حلفاء لقبيلة عقيل، فأسرت ثقيف رجلين من المسلمين، وأسر الصحابة رجلاً من قبيلة عقيل، وأصابوا معه ناقته وتسمَّى العضباء. فمر عليه رسول الله ﷺ وهو في الوثاق. فقال: يا محمد، فأتاه فقال: «**ما شأنك؟**» فقال: بم أخذتني؟ وبم أخذت سابقة الحاج (يعني بأي حق أسرتموني وغنتم ناقتي السريعة)، فقال رسول الله ﷺ: «**أخذناك بجريرة حلفائك ثقيف**»، ثم انصرف عنه، فطفق الرجل ينادي: يا محمد، يا محمد، وكان عليه الصلاة والسلام رحيمًا رقيقًا، فرجع إليه وقال له: «**ما شأنك؟**» فقال: إني مسلمٌ. قال: «**لو قلتها وأنت تملك أمرك أفلحت كل الفلاح**»، ثم إن رسول الله ﷺ فدى الرجل بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف.

أولاً: شرع الإسلام الرفق بالأسرى وإحسان معاملتهم، بل لقد بلغ الذروة حين أوصى بإيثارهم بالطعام فقال في مدح الأبرار فقال: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا**

﴿وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]، وانظر إلى معاملة النبي ﷺ لثمامة بن أثال الحنفي، وكيف آثره بلبن لقحته مع أن ثمامة كان فاتكًا.

ثانيًا: كانت سنة الجاهلية في الأسرى أن يُسترقوا أو يُحبسوا إلى أن يفتدوا فجاء الإسلام وشرع المن على الأسير بالعتق دونما فدية، قال تعالى في سورة «محمد»: ﴿**حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا**﴾ [محمد: ٤].

وقد رأينا في الحديث الكريم أن النبي ﷺ منَّ على الثمانين الذين انقضوا على جيش المسلمين ليلة الحديبية كما منَّ على جميع أهل مكة فلم يطلب منهم فدية، فشرع بذلك الحضارة العسكرية وعلم الدنيا رحمة العبد للعبد، ونبذ الكراهية والحقد.

ثالثًا: حكم الإسلام في الأسرى أنه يترك أمرهم للحاكم المسلم ليستشير بشأنهم، ويقدر العقوبة أو يقرر المن، وذلك لأن الأسرى تتفاوت مواقفهم من الإسلام وعداوتهم له وبأسهم ضده، ولهذا فقد أمر رسول الله ﷺ بضرب أعناق بعض الأسرى من طواغيت الكفر الذين لا ترجى أوبتهم إلى الحق، والذين آذوا رسول الله ﷺ، ورأيناه ﷺ يقبل الفدية كما فعل بأسرى بدر، وفي كل مرة كان يقدر عقوبة الأسير على قدر عناده، وعلى ضوء مصلحة الإسلام.

رابعًا: النساء والصبيان إذا وقعوا في أسر المسلمين. عاملهم الحاكم المسلم معاملة المثل بالمثل، فإن كان قومهم ممن يسترقون أسراهم ويعتبرونهم سبيًا عوملوا بالمثل، على أن الإسلام كان دوامًا مع المن والإحسان كما فعل رسول الله ﷺ بسبي هوازن بعد معركة حنين حين منَّ على جمعيهم وسلمهم لذويهم ودفع أموالاً لمن أصروا على الاحتفاظ بهم حتى أعتقوهم. كان ذلك حين قبل فيهم شفاعة أمه من الرضاع حليمة السعدية وأخته من الرضاع الشيماء.

والخلاصة أن للحاكم المسلم عند جمهور العلماء الحق في معاملة الأسرى بإحدى ثلاث: المن والفداء والقتل، وهو في كل ذلك يتحرى مصلحة الإسلام والمسلمين.

***

من أحاديث الآداب

تشبُّه الرجال بالنساء والنساء بالرجال

من الآداب التي يلتزمها المؤمن أن يعتز برجولته في لباسه وكلامه ومشيه، والحرص على بنيته ورياضته، فلا يبدو منه أي تشبُّه بالنساء أبدًا، وهذا الأمر أيضًا من آداب المرأة المؤمنة، فهي تحترم أنوثتها وحياءها وزيها المحتشم الساتر وتبتعد جهدها عن التشبه بالرجال إلا إذا كانت في الجهاد، فإذ ذاك لا حرج أن تتحول فارسًا صنديدًا من فرسان الإسلام.

ويرى الأشياخ أن تشبه الجنس بالجنس الآخر حرام؛ لأن رسول الله ﷺ شدد النكير في هذا الأمر حتى وصل به إلى اللعن، فقال في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري: «**لعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**».

هذا الأمر قد شاع في أيامنا هذه، فأصبحت ترى في مجتمعاتنا العربية شبابًا رخصًا مائعًا في كلامه في لباسه وتسريحة شعره وزخرفة ملابسة، وتراه إلى ذلك يكشف عورته ويعلق في رقبته سلسلة ذهب وترى فيه أنوثة في ألفاظه وضحكاته حتى لينطبق عليه قول أبي نواس وهو يصف بعض المتأنثين من غلمانه فيقول:

القد قد غلام ... والدل دل فتاة

ولقد رسم بعض الشعراء صورة لبعض هؤلاء فقال:

لهفي على ابن الأكرمين مخنفس ... رخصًا يسابق في الدلال الغيدا
بسوالف وسلاسل وأظافر ... كالقرد يقضي عمره تقليدا
الشعر منسدل على أكتافه ... يتسلح الأمشاط لا البارودا
والضَّيِّق الشفاف صير شكله ... أنثى وصرر عقله محدودا
فالكعب عالٍ والقميص مزخرف ... وغدا ترى خالاً له ونهودا
إن كان يكره للفتاة تبرُّج ... أنكون نحن المائسين قدودا

هذا الأمر - أعني: التشبُّه- تترتب عليه أحكام أحببت ألخصها فيما يأتي:

أولاً: يحرم على الرجال المسلمين لبس الحرير والذهب. قال رسول الله ﷺ «**أحل الذهب والحرير للإناث من أمتي وحرم على ذكورها**»، وحرم على المؤمن أن يلبس ثوب شهرة وثوب الشهرة (زي غريب يلفت الأنظار من عجابة طرازه)، قال رسول الله ﷺ فيما رواه أبو داود وأحمد وابن ماجه: «**من لبس ثوب شهرة ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة**».

والحق أن رسالة المؤمن في الحياة أسمى من النعومة والتأنث والإغراق في الترف؛ لأن أمة الإسلام أمة تضحيات وجهاد رسالتها نشر دين الله، والدعوة إلى الله على بصيرة وبذل الأرواح لله حتى يظهر دينه على الدين كله ولو كره الكافرون.

ثانيًا: كما يحرم على المؤمن أن يجر إزاره أو ثوبه بطرًا أو كبرياء؛ لأن بطر النعمة يزيلها، وشكرها يزكيها، ولا بأس أن تجر المرأة رداءها إمعانًا منها في التستر والاحتشام، قال رسول الله ﷺ: «**ما أسفل من الكعبين من الإزار في النار**».

ومن التشبُّه أن يلبس الرجل نعالاً أو حذاءً أو ثوبًا خاصًا بالنساء، وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله ﷺ قال: «**لعن الله الرجل يلبس لبس المرأة. والمرأة تلبس لباس الرجل**»، وإنما حرم الإسلام إسبال الثوب لما في ذلك من شبهة الترف، والإسلام دين الخشونة والرجولة لا دين الضعف والترف والتأنث.

ثالثًا: التختُّم بالفضة للرجال والنساء حلال، أما التختم بغيرهم من المعدن من حديد أو صفر فهو مكروه، أما التختم بالذهب فهو على الرجال حرام، ورخَّص رسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزبير في لبس الحرير لحاجة ألمت بهما.

رابعًا: لا يجوز الخضاب أي خضاب اليدين بالحناء ونحوها للرجال، ويجوز للمسلمات المتزوجات من قبيل التزين للزوج على ألا يكون نقشًا.

خامسًا: وكان عليه الصلاة والسلام ينهى عن المعصفر من الثياب، وعن الأحمر الصارخ منها لما في زخرفة الثياب من تشبه بالنساء، فقد روى أبو داود والترمذي أن النبي علية الصلاة والسلام مرَّ عليه رجل يلبس ثوبين أحمرين فسلم فلم يرد عليه النبي ﷺ، وأما الأحمر المعقول الحمرة فلا بأس بلبسه، وقد شاع في هذه الأيام أن يلبس الفتيان ثوبًا مشجرًا

كثيرًا الزخرفة كأنه ثوب المرأة، وهذا حرام قطعًا لما فيه من التشبه المعيب.

وعلى كل حال؛ فالله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده في مطعمه ومشربه وملبسه وطيبه وسكنه، لكنه ﷻ يكره السرف والبطر واستخدام النعم في المعصية وذرائعها مما يصرف الرجل عن رجولته والمرأة عن عفافها.

من أحاديث الآداب

العزة بالإســـــلام

الحمد لله الذي خلق كل شيء بقدر، وأشهد أن لا إله إلا الله، إليه المرجع وإليه المستقر، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، علَّمنا أن الله هو الأجل الأكبر، اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه ذوي التاريخ الماجد الأغر.

أما بعد؛ لا يمكن أن يرضى المؤمن بالذل، وأن يعطي الدنية من نفسه، لا تنحني هامته إلا للذي ركبَّها، ولا يعنو وجهه إلا للحي القيوم، وهو إنما يفعل ذلك لأن الله كرمه بالإنسانية وأعزه بالإيمان، لقد سمع قول الله فوعاه واستجاب للحق حين دعاه: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٠]. كان المؤمن يعي ويفهم معنى قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [المنافقون: ٨]، وكان يستجيب لنداء الحق جل علا: ﴿**وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٩].

هذا هو منهج حياة المؤمن عزة بالإسلام واعتصام بالإيمان وثبات كثبات الطرد الشامخ للريح العاتية كلما ألح الخطب وعظم الامتحان وتفاقم البلاء.

وفي هذا يقول الشاعر في مدح أصحاب محمد ﷺ:

كم سقوا موضع السجود دموعًا ... وأعلوا القنا دماءً زكية

فلهم في الدجى بكاء حزين ... ومع الصبح غضبة مضرية

والمتأمل في شجاعة السلف الصالح من أجدادنا وفي عزة أنفسهم وكرامتها يجد لذلك

سببًا واحدًا ألا وهو إيمانهم العظيم بقضاء الله وقدره.. كانوا يؤمنون إيمانًا لا حدود له بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

وما دامت الأمور كلها تجري بمقادير فلماذا يذل الإنسان نفسه؟! ولماذا يسقط حرصه كرامته؟! إذا آمنت أن رزقك في السماء، وأن أجلك في الكتاب، وأن أحدًا في كل هذه الدنيا لا يمكن أن ينفعك إلا بإذن الله، ولن يضرك إلا بما كتب الله، إذن؛ فلماذا الحرص المردي والطمع الشحيح والهلع وراء المطالب؟!

لا عجب إذن إذا رأيت الصحابي المؤمن ربعي بن عامر وهو صحابي من أسلافنا يقف أمام ملك الفرس وقائدهم ليقول له حين سأله الملك: ما الذي جاء بكم من صحرائكم إلى ديارنا: جئنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله، ولما قال له العلج: فإذا قتلناكم قبل ذلك. قال له: إننا عندئذٍ شهداء ننتقل من فانية إلى باقية، ومن دار مكابدة إلى دار مثوبة.. وانظر إلى المعنى الجليل في قول الصحابي: جئنا لنخرجكم من ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله.

لقد كان من سُنة السلف الصالح -رضوان الله عليهم- أن يؤمنوا بالقدر خيره وشره دون أن يناقشوا فيه أو يوغلوا في استقصائه؛ لأن الله ﷻ لا يُسأل عما يفعل، وكل من عداه قد يُنتَقد ويُسأل.

وإني موردٌ هنا هذه الطائفة العطرة من كلام رسول الله ﷺ مما يدور حول القضاء والقدر لعله ﷻ يجعلنا وإياكم ممن يرضون بقضائه رضا لا يخالطه سخط، ويطلبون رزقه في غير حرص مهين ولا شح مطاع:

- جاء في سنن أبي داود -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**»، والقدرية فئة يحمِّلون قدر الله كل مآثمهم وجرائمهم.

- وروى الترمذي بسنده عن أبي هريرة ﷺ قال: «خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: «**أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ**

عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَتَنَازَعُوا فِيهِ».

- وفي صحيح مسلم حديث عظيم يوصي المسلم أن يأخذ للأمر عدَّته، ويستعمل العقل والحزم في تنفيذ عزائمه ثم يرضي بعدئذ بما يقدره الله مهما كانت النتيجة: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ؛ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

- وفي الحديث الصحيح الذي رواه الجماعة قال رسول الله ﷺ: «**احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ عِنْدَ رَبِّهِمَا، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى قَالَ مُوسَى: أَنْتَ آدَمُ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلاَئِكَتَهُ، وَأَسْكَنَكَ فِي جَنَّتِهِ، ثُمَّ أَهْبَطْتَ النَّاسَ بِخَطِيئَتِكَ إِلَى الأَرْضِ، فَقَالَ آدَمُ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ، وَأَعْطَاكَ الأَلْوَاحَ فِيهَا تِبْيَانُ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَرَّبَكَ نَجِيًّا؛ فَبِكَمْ وَجَدْتَ اللهَ كَتَبَ التَّوْرَاةَ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ مُوسَى: بِأَرْبَعِينَ عَامًا. قَالَ آدَمُ: فَهَلْ وَجَدْتَ فِيهَا ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: أَفَتَلُومُنِي عَلَى أَنْ عَمِلْتُ عَمَلاً كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ أَنْ أَعْمَلَهُ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟! قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى»** (أي: غلبه في الحجة).

- وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا قضى الله لعبد أن يموت بأرض جعل له إليها حاجة**».

- وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**».

- وللترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ، حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ**».

- وفي سنن أبي داود والترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه عند الموت: يا بني، إنك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، فإني سمعت النبي ﷺ يقول: «**إنَّ أول ما خلق الله القلم، قال له: اكتب. قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء**».

حين آمن السلف الصالح بقضاء الله العظيم لم يعرفوا الفرار ولا الذل ولا الهزيمة، فكان النصر والفتح والتمكين، ثم لما كان حب الدنيا وكراهية الموت والتعلق بالحطام ابتليت أمتنا بالهزائم حتى لقد هزمها أذل أهل الأرض وهم اليهود.

خلاصة القول: إن الإسلام ربى سلفنا الصالح على الإيمان بقدر الله وعلى الرضا بقضائه، وبهذه التربية عزت نفوسهم فما دانت إلا لرب السماء والأرض، وأبدوا من صنوف الشجاعة الأدبية والقتالية ما أوقف المؤرخين الأجانب حيارى، قيل لعمر ﷺ حينما زار الشام في طريقه إلى بيت المقدس: إن أهل هذه الديار مردوا على عادات القياصرة فهم يهتمون باللباس وتأخذهم المظاهر، فلو تركت كساءك ولبست حُلة فاخرة لتملأ أعينهم وقلوبهم معًا، ويبدو أنه ﷺ وافق أول الأمر لكنه حين رأى نفسه في الحلة خلعها وقال: أحضروا لي ثوبي، نحن قوم أعزنا الله بهذا الدين فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، رضي الله عن أولئك الغر الميامين، وأرضاهم وألهمنا وإياكم أن نسير على منهاجهم وهداهم.

من أحاديث الآداب

النية الصادقة والإخلاص لله

إنَّ أجمل وصف يوصف به المرء أن تقول: إنه مخلص، وإن أقبح وصف تنسبه إلى إنسان أن تقول: إنه غاش أو مراءٍ أو منافق، ولا غرو فالإخلاص هو ملاك الدين وقاعدته وعماده. وهو أمر الله لجميع أنبيائه، ولكل من آمن معهم يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ**﴾، ولأمر ما كانت سورة «الإخلاص» عند الله تساوي ثلث القرآن مع أنها سطر واحد فيه خمس عشرة كلمة.

الإخلاص هو أن تكون صلاة العبد ونسكه ومحياه ومماته خالصة لوجه الله لا يشوبها رياء ولا سمعة ولا نفاق، والإخلاص هو أساس القبول فيه قد تتحول التمرة إلى مثل جبل أحد، وبدونه تكون الأعمال كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، فلم تبق منه ذرة.

الإخلاص هو أن تجعل توجهك وكل وجهتك إلى الله غير ملتفت إلى أي شريك من سلطان أو نبي أو ملك، وما أجمل وأورع التعبير عن هذا المعنى في قوله تعالى في سورة

«يونس»: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۞ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٥، ١٠٦].

وانظر إلى عظمة العبارة المعبرة عن الإخلاص في سورة الروم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٣٠، ٣١].

إنَّ أعظم ما يحرص عليه الملوك من رعيتهم هو (ولاء القلوب) فلو أن مواطنًا عُرف بولاء قلبه لأولي الأمر ثم وقع في معصية مما يغضبهم لكان له من ولاء قلبه ما يشفع له لديهم، وعلى النقيض من ذلك مواطن يقدم للدولة خدمات جليلة ثم يتضح بعد ذلك أنه يعطي ولاء قلبه لغير مليكه أو يعمل عينًا على بلاده.

ولله ﷻ المثل الأعلى فهو ملك الملوك، وهو أغير من كل غيور على ولاء القلوب من عباده، فإذا تحقق للمؤمن ولاؤه لله وحده، وتهيأ له صفاء توحيده من أي شائبة فكل ذنوبه عندئذ إلى مغفرة وليس له عند الله جزاء إلا الجنة.

لقد لفت أنظار الأشياخ -رحمهم الله- ملاحظة وقفوا عندها طويلاً وهم يفسرون قوله في آية سورة «الذاريات»: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فقالوا: إن الله ﷻ قد خلق الإنسان مستخلفًا في هذه الأرض ليعمرها بكافة وسائل عمرانها من زراعة وصناعة وتجارة ورعي وصيد في البر والبحر وإنجاب ذرية وتربيتهم، فكيف نوِّفق بين هذه الحقيقة وبين ما جاء في الآية الكريمة بأن الإنسان ما خلق إلا لغرض واحد ألا وهو عبادة الله، ولكنه ﷻ فتح عليهم بالجواب الصحيح، وهو أن العبادة لا تقتصر على الركوع والسجود والتهجد والنسك والصوم والزكاة، فتلك حقًا عبادات جليلة، ولكن إلى جانب هذه فإن كل عمل من أعمال ابن آدم إذا أراد به وجه الله، فإنه حينئذ عبادة، ومن هنا يتحول النشاط البشري كله عبادة إذا اقترن بإخلاص النية لله ﷻ.

إنَّ المؤمن المخلص لله يعبده بزراعته وبتجارته وبصناعته وبسعيه في الرزق لإعالة عائلته، إنه يعبد الله حتى وهو يستمتع بزوجته مبتغيًا بتلك المتعة أن يعف عن الحرمات، وأن ينجب الذرية الصالحة، وإلى هذا أشار رسول الله ﷺ في قوله: «**وفي بضع أحدكم صدقة**».

نعم إن المتعة الحلال تتحول صدقة حين يبتغي بها صاحبها العصمة من المتعة الحرام. وبذلك تجلى تفسير الآية العظيمة حين وسع الأشياخ مفهوم العبادة ولم يحصروها في التركع والتسبيح.

إن الحسنات عند الله بعضها بعشر حسنات وبعضها يتدرج إلى سبعمائة ثم يرقى بعد ذلك ثواب الحسنة حتى تصبح بغير حساب، قال الله تعالى في سورة «آل عمران» وهو يحكي عن الرزق الذي كان زكريا يراه عند مريم: ﴿**قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران:٣٧]، وقال تعالى وهو يتحدث عن عُمّار المساجد في سورة «النور»: ﴿**لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [النور:٣٨]، وفي فضل الصابرين يقول تعالى في سورة «الزمر»: ﴿**إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [الزمر: ١٠].

وإنما تتفاوت الحسنات في ثوابها على قدر ما يصحبها من إخلاص النية لله، وانظر إلى الحديث المتفق على صحته حول ارتباط العمل بالنية، وانظر إلى أسلوب التوكيد والقصر باستعمال كلمة (إنما): «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى...**».

- وفي صحيح مسلم ما يفيد أن النية الصادقة والإخلاص لله يحققان للمؤمن فضيلة الجهاد وثوابه حتى ولو لم يخرج للجهاد، فقد قال في إحدى الغزوات لأصحابه: «**إن بالمدينة لرجالاً ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض**».

- وفي صحيح مسلم أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**».

- وفي أهمية النية يقول النبي ﷺ: «**إذا التقى المسلمان بسيفهما، فالقاتل والمقتول في النار**» قالوا: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه**».

- وفي الحديث المتفق عليه قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً**».

- وفي صحيح البخاري ما خلاصته أن أحد الصحابة وضع دنانير عند رجل في المسجد ليتصدق بها عن صاحبها، فجاء ابن الصحابي إلى المسجد فناوله المؤتمن الدنانير يظنه فقيرًا فقال رسول الله ﷺ: «**لك ما نويت يا يزيد، ولك ما نويت يا معين**»، ويزيد هو الأب الذي دفع الدنانير، ومعن هو الابن الذي أخذها.

- أسأل الله لي وللإخوة القراء أن يصلح نوايانا ويحقق إخلاصنا وينقي قلوبنا من كل رياء وسمعة وأن يجعل كل أعمالنا خالصة مخلصة لوجهه الكريم، وأن ينورها بالتقوى التي يتحقق بها القبول كما جاء في قوله ﷻ: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾ [المائدة: ٢٧].

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۞ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر: ١، ٢].

من أحاديث الآداب

فضل النية الصالحة

من الآداب التي يلازمها المؤمن ويحرص عليها حرصه على المال الصالح والولد الناجح، خلق كان يتواصى به المصطفون الأخيار ألا وهو (نية الخير)، وذلك بأن يظل المؤمن على كافة أحواله جميل القلب والأحاسيس كأنما قلبه طاقة من أزهار الخمائل يتحف العيون منظرًا رضيًا، ويهدي الأنوف شذًا عبقريًّا. قال عبد الله بن الإمام أحمد لأبيه يومًا: أوصني يا أبت. فقال: يا بني، انو الخير؛ فإنك لا تزال بخير ما نويته.

ومع أن الوصية كلمتان؛ فهي من أعظم الوصايا؛ لأنها سهلة التنفيذ دائمة الثواب، فما أسهل أن يتحلى المرء بالمقاصد النبيلة والنوايا الجميلة، ولا خلاف بين العلماء أن المؤمن يثاب بنيته، والحديث الصحيح معروف حين قال رسول الله ﷺ لجلسائه يومًا: يدخل عليكم الآن رجل من أهل الجنة، وإذا رجل من الأنصار يدخل وكرَّرها رسول الله في اليومين التاليين والرجل نفسه يدخل، وعندئذ أعمل عبد الله بن عمر حيلته فتمكن أن يبيت عند الرجل ورصد كل أحواله فلم يجد له عبادة متميزة ولا قيامًا طويلاً، ثم لما سأله عن عمله الذي هيأه لتلك البشرى التي ذكرها رسول الله ﷺ قال: لا أعلم لي عملاً غير ما يعمله القوم غير أني لا

أعلم أني بت ليلة وفي قلبي غل لمسلم.

وهنا يبرز سؤال وهو: هل يثيب الله عبادة أو يؤاخذهم على ما يجول في قلوبهم؟

والجواب: أن كل ما يهم به المؤمن من قول أو عمل حسن، وكل ما يضمره المؤمن في قلبه من ذكر الله وحب المؤمنين وعشق الخير، أقول: كل هذا يكتب للمؤمن حسنة، ولو لم يتلفظ به، لكن حين يخرج إلى حيز القول أو العمل يكتب عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف، وقد قيل: نية المؤمن خير من عمله. والنية تسبق العمل فتكون الأعمال بالنيات، وكما يثاب المرء على نواياه الصالحة؛ فإنه -والله أعلم- قد يعاقب على أعمال قلبه الخبيثة، يقول الله تعالى: ﴿**وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٢٥]، فإذا أسكن الرجل قلبه خبائث الأحقاد وبواطل الهوى والسخط على القضاء والحسد الأسود والطمع والنفاق والرياء والإعجاب.

فإن هذه كلها -والله أعلم- إذا أشربها القلب تكسب صاحبها إثمًا، قال الله تعالى يذكر نبيه يوسف عليه السلام: ﴿**فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ**﴾ [يوسف: ٤٢]؛ فانظر كيف آخذ الله نبيه يوسف عليه السلام بعمل لم يعمله، ولكنه جال بقلبه وهو نية الركون إلى غير الله ونسيان ذكر الله.

أما أفعال القلوب التي لا يؤاخذ الله عليها؛ فهي خواطر النفس التي يملك الإنسان ردها بل تفرض نفسها عليه في هواجس صلاته، وقبيل منامه وفي بعض أمنياته وتمنياته وتصوراته وأحلام يقظته، فتلك أمور والله أعلم يغفرها الله بواسع رحمته.

على أن هنالك مواقف وأزمنة وأماكن قد يؤاخذ الله فيها العبد على مجرد نية السوء فيها ففي مشاعر الحج مثلاً وفي مقدمتها المسجد الحرام إذا بيَّت إنسان نية خبيثة كنية قتل أو سرقة أو إفساد ثم لم يتمكن من تنفيذ ما بيته فإن الله يؤاخذه ويعاقبه على مجرد إرادته وعزم قلبه قال الله تعالى يذكر بيته العتيق: ﴿**وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ**﴾ [الحج: ٢٥].

فانظر كيف أن مجرد إرادة الظلم ترتب عليها عذاب الله حتى ولو لم تخرج إلى حيز التنفيذ، وكذلك من بيت للحجيج مؤامرة أو تخريبًا في مواطن ازدحامهم، فإن لمثل هذا عذابًا أليمًا، وأحبط الله كيده وأبطل ما بيته، وهذا مذهب عدد كبير من الصحابة بأن من بيَّت سوءًا

في رحاب المناسك؛ فله عذاب أليم بمجرد نيته السيئة حتى ولو لم يقدر على إنفاذ السوء، قال ابن مسعود: «ولو أن رجلاً همَّ بخطيئة لم تكتب عليه حتى يعملها، ولكن لو أن رجلاً بيَّت قتل مؤمن في بيت الله الحرام وهو تعدٍ به؛ أذاقه الله من عذاب أليم».

وينطبق هذا -والله أعلم- على كلِّ مَن يخطط لإفساد ديار المسلمين أو مصادر أقواتهم أو يهم بتسميم زراعتهم أو تفجير مصانعهم، فكلُّ مَن يخطط أو يبيِّت ثم لم يستطع التنفيذ؛ فإن له عذاب الله على مجرد نية قلبه. قال أحد الأشياخ: إنَّ الرجل يهم بالخطيئة أن يفعلها بمكة ويكون هو بعيد بأرض أخرى؛ فيكتبها الله عليه.

وقال أحمد: السيئة بمثلها واحدة بواحدة إلا سيئة تقترف بمكة المكرمة فإنها تضاعف لتعظيم هذا البلد الآمن، وما أجمل أن يجعل المؤمن قلبه مشكاة وضيئة مضيئة وباقة عطرة شذية، فينوره بنور الله ويجمله بنوايا الخير والعدل والإحسان والمعروف.

وما أجمل أن يحمي المؤمن قلبه من النوايا السُّود التي تغلِّفه بران المعصية الآسن، وتقتله بالحسد قبل أن تصل شرور حسده إلى أعدائه.

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

أوليـــــــــاء الله

إنَّ أهل السُّنة والجماعة يؤمنون بأن لله أولياء يصطفيهم من عباده، ويعتبرهم من حزبه الغالب المفلح، وينصرهم بنصره، ويؤمنهم بأمنه، ويعادي من يعاديهم، ويكرمهم ربهم بكرامات من عنده، وهؤلاء الأولياء ورد لهم ذكر عالٍ في كتاب الله وسنة نبيه. أما ما ورد من ذكرهم في كتاب الله فآيات كريمة جميلة من سورة يونس هي قوله تعالى: ﴿**أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ الله ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

إذا أردت أن تكون من أولياء الله فانظر ذلك التعريف المجمل الجميل الذي ورد في الآيات الثلاث الكريمات نفسها، إن أولياء الله كما جاء في الآيات هم ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٦٣]، أولياء الله لهم صفتان رئيسيتان تحكمان أخلاقهم وحركاتهم وتصرفاتهم وجميع سلوكهم، الإيمان الصادق الذي لا يغيب من قلب الولي نوره، والتقوى التي تنبع منها كرامته.

هذا، ولأولياء الله كرامات ذكر ربنا بعضها؛ ففي سورة «آل عمران» ذكر ربنا ﷻ أنه أكرم السيدة مريم -عليها السلام- بكرامات عظيمة، فقد كان زكريا عليه السلام كلما دخل عليها غرفة عبادتها وجد عندها رزقًا من وضيء الثمار وزكي الطعام، حتى إنه ليجد فواكه وثمارًا في غير أوانها، فيقول: ﴿**يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا**﴾، فتقول: ﴿**هُوَ مِنْ عِندِ الله إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [آل عمران:٣٧].

وهذا ما شجَّع زكريا عليه السلام أن يسأل ربه مسألة كان يعلم أن تحقيقها في نظر الخلق مستحيل، لكنه سألها حين نبهته مريم أن الله إذا أصدر أمره وأراد الكرامة لعبدٍ؛ فإنه يرزقه بغير حساب، وهنا تشجع زكريا فطلب من الله أن يرزقه وليًّا يخدم النبوة، فرزقه يحيى عليه السلام من زوجة عاقر وهو شيخ كبير جدًّا، والله غالب على أمره، وكل شيء في العالم بمشيئته وقدره.

وحين أراد الله لمريم الكرامة بشرها بكلمته وأعطاها عيسى، وهي لم يمسسها بشر وبشرتها ملائكة الله بكلمة من الله تحولت بشرًا مكرمًا ولما استغربت ذلك قال لها: ﴿**كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا**﴾ [مريم: ٢١]، وأكرمها رضي الله عنها في مخاضها فرزقها طعامًا وشرابًا وقرة عين.

ولا غرو؛ فآل عمران أسرة مصطفاة، اصطفاها الله على العالمين، وذكر الله ﷻ في كتابه الكريم كرامات للعبد الصالح الذي وجده موسى عند مجمع البحرين وتتلمذ عليه، وذكر كرامة أهل الكهف حين نجاهم من الكفار أن يرجموهم أو يعيدوهم في ملتهم، فضرب على آذانهم وأنامهم ثلاثمائة سنة وتسع سنين، ربط أثناءها على قلوبهم، وحفظ وضاءة أجسادهم حتى أراد أن يبعثهم في زمن النبوة لكي يتوفاهم مؤمنين، وهنا لا بدَّ من تنبيه العامة إلى أمر يتعلق بالولاية بأنها لا يمكن أن تكون في مشعوذ ولا مخبول ولا مهبول ولا دجال ولا مدع يتاجر بادعائه ليكسب عرضًا من الدنيا.

إنَّ أولياء الله كما جاء تعريفهم في القرآن الكريم هم الذين آمنوا بالله حق الإيمان، واتقوه حق التقوى، والإيمان هو ما وقر في القلب من اعتقاد سليم وصدقه العمل الصالح الكريم، وأما التقوى؛ فهي هبة من الله، يزود الله بها عباده المؤمنين تصحبهم في كل مكان، فلا يصدر عنهم عندئذٍ إلا جميل من القول، وجليل من العمل، وشريف من الاتباع، وابتعاد عن كل شرك، التقوى هي ثمرة الإيمان أولها اتباع الحق: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣].

إذا أردت أن تتشرف بتحقيق تقوى الله ومخافته؛ فعض بالنواجذ على اتباع صراطه، ونبذ كل سبيل سواه، ومن هنا؛ فإني أشدد على المعنى الحقيقي للولاية ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾ [يونس: ٦٣].

أما ما ينتشر في أرجاء العالم الإسلامي من أدعياء ومدعين، وأما الجهلة الذين يأكلون أكل البهائم، ويقومون للرقص والغزل، وأما المتظاهرون بالجذب والخبل والهبل ليجروا مصالح الدنيا، وأما من يدعون علم الغيب لينالوا بدعواهم دنيا يصيبونها -فكلُّ أولئك بينهم وبين الولاية بُعد المشرقين.

إنَّ المؤمن الذي لا يخاف ولا يحزن وتراه مستبشرًا في الحياة الدنيا وفي الآخرة هو الذي عمَّر الإيمان قلبه، وغمرت التقوى أعماله، هنالك تمتلئ روحه شجاعة وإقدامًا؛ لأنه محروس ومؤيد بالأمن الذي لا يناله إلا من آمن بالله، ولم يلبس إيمانه بظلم، عند هذه المنزلة من مدارج السالكين يكون الله معه، ويكبت عدوه، يقول ربنا ﷻ فيما رواه عنه نبيه الصادق الأمين: «**مَن عادى لي وليًا؛ فقد آذنته بالحرب**».

إذا آمنت بكرامة جابر بن عبد الله حين أطعم الجيش العامل في الخندق من شاةٍ وبعض شعير فشبعوا، فأنت تؤمن بكرامة حقيقية؛ لأن صاحبها ولي ثبت ولايته إيمانًا وتقوى، وإذا آمنت بكرامة خبيب حين رأته بنت الحارث يأكل قطعًا من العنب وهو مكبل وما في مكة عنب ولا في غيرها في ذلك الموسم.

وإذا آمنت بكرامة الثلاثة أصحاب الغار الذين سدت عليهم المغارة صخرة، ثم انفرجت عنهم بصدق أعمالهم، وإذا آمنت بولاية عاصم بن ثابت حين حمى الله جثته أن يصل إليها المشركون، وإذا آمنت بولاية الغلام الذي يأتي الراهب والساحر، وإذا أمنت بكرامة الرجل الذي سمع الهاتف يقول للسحاب أن يسقي حديقته -أقول: إذا أمنت بهذا؛ فقد أصبت اعتقاد أهل السُّنة والجماعة؛ لأنك تؤمن بكرامات قوم صدقوا الله، فآمنوا بالله حق الإيمان واتقوه حق التقوى.

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

لبس الذهب والحرير للرجال

على الرغم مما يعانيه المسلمون في أيامنا هذه من الهزائم المخجلة والمؤامرات اللئيمة والتحديات الوقحة، فإنك قد تمر على شباب مسلمين وقد بدا عليهم أثر التأنث ترى الواحد منهم وقد لبس حذاء له كعب عالٍ، وقميصًا حريريًا مزخرفًا وسلسلة ذهبية في رقبته وإسورة على هيئة سلسلة من الذهب، وقد مشى ميَّاسًا كالنساء، تلاشت من وجهه وعطفيه علائم التذكير، فما تكاد تميز بينه وبين الأنثى يظن هذا الغافل أن هذه هي الحضارة، وما درى أن سلوكه هذا دعارة استحق عليها لعنة رسول الله ﷺ فيما روى البخاري عن ابن عباس: «**لعن رسول الله ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**».

- وروى أصحاب السنن عن أبي هريرة: لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة وهي تلبس لبسة الرجل. وقال رسول اله ﷺ: «**مَن لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة**»، وثوب الشهرة هو ما يبتكره بعض النساء والشباب من أزياء تشهرهم بين النساء والرجال.

وحكمة ذلك أن الإسلام يريد من شبابه أن يكونوا على المدى جنودًا للحق والعدل والإيمان مجاهدين في سبيل الله لإعلاء كلمته وإعزاز دينه وإذلال أعدائه، ومثل هذه الرسالة تتطلب صلابة ورجولة وصبرًا وجلدًا، فما يستطيع أن ينهض بها كل رخْص ناعم مائع متأنث.

وحين حرم الله ﷻ على شباب المسلمين وكهولهم لبس الحرير والذهب قصد أن يعطيهم درسًا أن رسالة شباب الإسلام أسمى وأجل من تنهض لها النعومة، وإنما تحققها كل همة لا تعرف الفتور وكل كف مخصبة بدم الباطل والظلم والكفر.

وإني موردٌ هنا -إنْ شاء الله- ما ورد من الأحاديث الشريفة حول لبس الذهب والحرير للرجال فمتبعها -إن شاء الله- بذكر أحكامها عسى أن ينفع الله بها شباب المسلمين فيتبدلوا بالمطامح الرخيصة هممًا إلى ما فوق السماء:

- روى البخاري ومسلم عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة**».

- وفي سنن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «**حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإناثهم**».

- وفي الحديث المتفق عليه أن حاكم دومة الجندل أهدى رسول الله ﷺ ثوب حرير فأعطاه عليًّا وقال: «**شَقِّقْهُ خُمُرًا بَيْنَ الْفَوَاطِمِ**»، ومعناه: قسِّمه أغطية وجوه بين النساء.

- ومن حديث عقبة بن عامر ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول لأهله: «**إن كنتم تحبون حلية الجنة وحريرها فلا تلبسوها في الدنيا**»، وحلية أهل الجنة وردت في قوله تعالى: ﴿**يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾ [الحج: ٢٣]، وفي قوله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿**أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ**﴾ [الكهف: ٣١].

- **وهذه أحكام مستنبطة من الأحاديث الشريفة:**

أولاً: لم يحرم الله ﷻ على الرجال ولا طلب منهم أن يفعلوا ما كان يفعل الكثير من أهل الجاهلية حين كان أحدهم يطوف عاريًا؛ ففي حديث عبد الله بن مسعود أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة فهل هذا كبر؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس**»، وفي (جامع الترمذي) أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله الطيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجواد، فنظفوا أفنيتكم ولا تشبَّهوا باليهود**».

وما أجمل الاستفهام الإنكاري في القرآن الكريم؛ إذ يقول ربنا ﷻ في سورة «الأعراف»: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف: ٣١].

الإسلام يحب اللباس النظيف الساتر الذي يزين صاحبه ويجمله؛ ففي حديث أبي داود أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه وهم عائدون من سفر: «**إِنَّكُمْ قَادِمُونَ عَلَى إِخْوَانِكُمْ، فَأَصْلِحُوا رِحَالَكُمْ، وَأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حَتَّى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ شَامَةٌ فِي النَّاسِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفُحْشَ وَلَا التَّفَحُّشَ**».

ولقد رأى رسول الله ﷺ صحابيًّا اسمه أبو الأحوص وقد لبس ثوبًا رثًّا، فعاب عليه ذلك حين علم أنه غني وقال له: «**إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالاً؛ فَلْيُرَ أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ وَكَرَامَتِهِ**».

ثانيًا: اللباس الحرام هو الذي لا يليق برجولة الرجل أو بأنوثة الأنثى، ولهذا فقد حَرَّم الإسلام على الرجال لبس الحرير والذهب ولبس ما يختص بالنساء من الملابس والجلوس على الحرير والديباج، وهذا التحريم حكمته أن يترفع شباب الإسلام عن الترف والنعومة؛ لأن الله ﷻ حملهم رسالة الجهاد وهي تتطلب قدرًا عظيمًا من تحمل المشاق والصمود لها.

وقد كان رسول الله يتعهد أصحابه بالتربية الرجولية المستقيمة، ويعدهم إعدادًا يناسب ما جُندوا له من محاربة الكفر والمنكر، روى مسلم -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل فنزعه وطرحه وقال: «**يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيطرحها في يده**»، فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك وانتفع به. قال: لا والله لا آخذه وقد طرحه رسول الله ﷺ.. ألا ما أعظم المعلم وما أورع استجابة المتعلم!!

ثالثًا: التختم بالفضة جائز للرجال على أن يلبس الخاتم في الإصبع الخنصر أو الإصبع التي تليها وتسمي البنصر أما الوسطي والسبابة والإبهام فلا يتختم فيها، وهنا نشير إلى ما يحدث في الأعراس من عادة أن يهدي كل من الزوج والزوجة لصاحبه خاتمًا، ونقول: ما أجمل أن يكون الخاتم المهدى للزوجة ذهبًا، والمهدى للزوج فضة، وبذلك يكون العرس إن شاء الله خاليًا من كل محرم.

رابعًا: يرخَّص في لبس الحرير إذا كان لبسه استشفاء كما لو كان في الجلد حساسية من الخشن، وقد رخَّص الرسول الله ﷺ لعبد الرحمن بن عوف وللزبير بن العوام في لبس الحرير لحكة كانت بهما؛ لأن الحرير عندئذ لا يكون للترف والرفاهية. كما يرخَّص في لبس ثوب محبوك الأطراف بالحرير بحيث لا يزيد عرض الحبكة على موضع أصبعين أو ثلاثة أو أربعة. وكذلك يجوز لبس ثوب خليط من حرير وغيره على أن تكون نسبة الحرير أقل من النصف.

خامسًا: من الأشياخ من يرى أن لبس الحرير للرجال مكروه، ويستدل على ذلك بحديث أبي داود بأن أكثر من عشرين صحابيًا لبسوا الحرير، وكان من بينهم صحابيون أجلاء؛ كالبراء بن عازب وأنس بن مالك، وفي «نيل الأوطار» أن أحاديث النهي تدل على

الكراهية، وهذا الرأي يجمع بين أحاديث النهي وأحاديث الجواز، ويمكن أن يؤخذ به في ظروف معنية كأن يعيش المسلم في بلاد يكون الحرير فيها أرخص من الصوف والقطن.

سادسًا: الأكل والشراب في صحون الذهب والفضة وكئوسهما منهي عنهما، ففي «صحيحي» البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الذي يشرب في آنية الفضة إنما يجرجر** – أي: يتجرع- **في بطنه نار جهنم**». فإذا رأيت في حفلة دعيت إليها أواني أو ملاعق ذهب وفضة فاهجرها وكل بيدك، ويرى جماعة من أشياخنا أن اتخاذ أواني الذهب والفضة كتحف في البيت للتجميل لا للأكل غير جائز والبعض يجيزه. أما اتخاذ أعضاء من الذهب فجائز كالأسنان والأنف، فقد روى الترمذي عن عرفجة بن أسعد أنه قال: أصيب أنفي يوم الكلاب (وهو معركة دارت بين قبائل قحطانية وعدنانية) فاتخذت أنفًا من فضة فأتن عليَّ فأمرني رسول الله أن أتخذ أنفًا من ذهب.

سابعًا: هذا، ويحظر الإسلام على المرأة أن توغل في تغيير خلق الله، بل عليها أن تكتفي بما يجملها في عين زوجها، ومن الإيغال ما تفعله بعض النساء بحواجبهن وشعرهن في هذه الأيام حين تغير شكلها بلبس باروكة شقراء وتكون المرأة سمراء، وقد ثبت أن الإيغال في المساحيق يجعد بشرة الوجه، وقد لعن رسول الله ﷺ -كما جاء في الحديث الصحيح- الواشمات والمستوشمات والنامصات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، والوشم: نقش أخضر يتم بغرز إبر وذر كحل عليه، والنمص: نتف الشعر، والتفلج: تفريق الأسنان بمبرد ونحوه.. هذا، والأعمال بالنيات، والله أعلم.

***

من أحاديث الآداب

التفكير في البعث والحساب

إنَّ من آداب المسلم أن يطيل التفكير في البعث والحساب يوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئًا، وإن كان مثقال حبة من خردل. إن الإيمان باليوم الآخر هو الذي صقل المسلمين وأخلص نفوسهم ووجَّه أخلاقهم، وجعل لهم من نفوسهم ضمائر لوامة تهتف به كلما هم بمعصية تقول له: لا تبع باقيتك بفانيتك، وتذكر أنك لم تخلق عبثًا، ولم تترك سدى، واعلم أن وراءك يومًا ثقيلاً تتقلب فيه القلوب والأبصار ويومًا عبوسًا قمطريرًا يجعل الوِلدان شيبًا، فاشتر نفسك من العذاب، وأعتقها من مكابدة الحساب.

إنَّ الإيمان باليوم الآخر صنع من سلفنا الصالح أبطالاً أهون شيء عندهم الموت؛ لأنه في نظرهم ما هو إلا نقلة من دار تزول غدًا إلى دار لا تزول أبدًا. الإيمان باليوم الآخر يوقفك عند كل عمل تريد أن تعمله لتسأل نفسك: أهو عمل يرضي الله تبارك وتعالى؟؟ تنال به عليا الدرجات أم هو معصية لله تطيح بصاحبها إلى مدارج الموبقات، وكثيرًا ما يقتصر القرآن عند ذكر المؤمنين فيصفهم بأنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر، وذلك لأن المؤمن حين يؤمن به يمتلئ قلبه بخشية الله ورجاء ثوابه والخوف من حسابه وعقابه، وهناك تغرس في قلبه كل أركان الإيمان.

ومما يعينك يا أخي القارئ على تذكر اليوم الآخر أن تستمع وتقرأ الأحاديث النبوية الكريمة التي كان رسول الله ﷺ يقصها على أصحابه، يذكرهم فيها بذلك اليوم الذي يرجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وتجزى ما أسلفت، وهناك لا يجزى والد عن ولده ولا مولود وهو جازٍ عن والده، وترى الناس من هول الحساب والزلزلة سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد هنالك يرد الأمر كله إلى الله، ﴿**ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ**﴾ [الأنعام: ٦٢].

وإني مورد هنا بعض ما كان رسول الله ﷺ يلقيه على مسامع أصحابه من أحاديث وقصص عن اليوم الآخر وما يصحبه من ثواب الله الجزيل ومن أخذه الوبيل:

- جاء في (جامع الترمذي) أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تزول قدما عبد -أي: لا ينصرف عبد من موقف الحساب- حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**».

- وروي أيضًا أن رسول الله ﷺ قرأ على أصحابه: ﴿**يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾، فقال: «**أتدرون ما أخبارها؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها، تقول: عملت كذا وكذا يوم كذا وكذا؛ فهذه أخبارها**».

- وروى مسلم -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**». قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ؟! قَالَ: «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا**». قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ.

- وفي الحديث المتفق عليه قص رسول الله على أصحابه حديث الشفاعة، وخلاصته ما معناه أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأصحابه: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ يُجْمَعُ النَّاسُ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ، فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لاَ يُطِيقُونَ وَلاَ يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ النَّاسُ: أَلاَ تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟! أَلاَ تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟! فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: عَلَيْكُمْ بِآدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ عليه السلام، فَيَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلاَئِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! أَلاَ تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟! فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ.**

فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، إِنَّكَ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي عز وجل قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ.

فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: يَا إِبْرَاهِيمُ، أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ كُنْتُ كَذَبْتُ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى.

فَيَأْتُونَ مُوسَى، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلاَمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى.

فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، اشْفَعْ لَنَا أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَيَقُولُ عِيسَى: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ وَخَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ، وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلاَ تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟! فَأَنْطَلِقُ فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ﷻ ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْبَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ، ثُمَّ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَحِمْيَرَ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى».

- وفي الحديث المتفق عليه قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَي رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ».

- وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة**»، وهذا المعنى هو ما تضمه قوله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا**﴾ [الكهف: ١٠٥].

- وروى مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «**احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينُهُمْ. قَالَ: فَقَضَى بَيْنَهُمَا إِنَّكِ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكِلاَكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا**».

بمثل هذه الأحاديث البليغة والقصص المشوقة كان رسول الله ﷺ يربي أصحابة على الإيمان بالله واليوم الآخر وعلى رجاء ثوابه وخشية عقابه حتى نشَّأ -عليه الصلاة والسلام- جيلاً من الأبطال كان أقصى أمانيهم أن يبذلوا أرواحهم لله لينالوا جنته ورضوانه ويظهروا دينه على الدين كله ولو كره الكافرون.

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

الإخلاص في العمل

إذا كان يوم القيامة حُشر الناس إلى ربهم حفاة عراة غرلاً يُعرضون على ربهم صفًّا كما خلقهم ﷻ أول مرة، فيخاطبهم ربهم منكرًا على من كان ينكر البعث ويقول لهم: ﴿**لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَن لَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا**﴾ [الكهف: ٤٨].

هنالك يكون أغلى ما على الإنسان عمله الصالح، فهو إذا ذاك ينظر في لهفة إلى موازين الأعمال ليرى بينها ميزان عمله. إنه لموقف عظيم صورة ربنا ﷻ في آية عظيمة من سورة «الأنبياء»: ﴿**وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ**﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ويكمل الصورة الرائعة المروعة بآية الكريمة من سورة «يونس»: ﴿**هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ [يونس: ٣٠].

هنالك تبلى سرائر الناس ويعرضون لا تخفي منهم خافية وينادي فيهم منادي الله بما أنزله في سورة «غافر»: ﴿**لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۞ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [غافر: ١٦- ١٧].

هنالك لا يقبل الله من الأعمال إلا ما كان خالصًا مخلصًا لوجهه الكريم وهنالك ترى كثيرًا من الناس وقد ذهبت أنفسهم حسرات حين أقبلوا على موازين أعمالهم فوجدوها لأول نظرة طافحة بأنواع الحسنات، ويرون بعض أعمال الخير في موازينهم كالجبال، فما يشكون أول الأمر أنها موصلتهم إلى عليا منازل الجنان، ثم ما هو إلا مثل لمح البصر حتى يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون حين يرون إعصارًا وقد هب في عنف عنيف على تلك الموازين فأطار كل ما في كفة الحسنات، فإذا تساءلوا: ما الأمر؟ قيل لهم: لقد عملتم تلك الحسنات ليرى الناس أعمالكم فأذهبوا والتمسوا مثوبتكم عند الذين راءيتم لهم وطلبتم السمعة لديهم، إن ربكم أغنى الشركاء، وقد أشركتم معه غيره فابحثوا عن شركائكم وادعوهم، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقًا.

- جاء في (سنن الترمذي) أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ -تَبَارَكَ وَتَعَالَى- إِذَا كَانَ يَوْمُ**

الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ؛ فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَارِئِ: أَلَمْ أُعَلِّمْكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عُلِّمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَآنَاءَ النَّهَارِ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ فُلَانًا قَارِئٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَلَمْ أُوَسِّعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدَعْكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ وَأَتَصَدَّقُ. فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَوَادٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ.

وَيُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فَيَقُولُ: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، وَيَقُولُ اللهُ: بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقَالَ: فُلَانٌ جَرِيءٌ فَقَدْ قِيلَ ذَاكَ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ الله تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

- وروى الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**تَعَوَّذُوا بِالله مِنْ جُبِّ الْحُزْنِ**» (والجب هو البئر) قالوا: وما جب الحزن؟ قال: «**وَادٍ فِي جَهَنَّمَ تَتَعَوَّذُ مِنْهُ جَهَنَّمُ كُلَّ يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ**». قيل: ومَن يدخله؟ قال: «**الْقُرَّاءُ الْمُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ**».

- وللترمذي أيضًا: «قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله، الرَّجُلُ يَعْمَلُ الْعَمَلَ فَيُسِرُّهُ (أي: يكتمه أن يراه الناس)، فَإِذَا اطُّلِعَ عَلَيْهِ أَعْجَبَهُ ذَلِكَ (يعني إذا شاع إحسانه في الناس سره ذلك)، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَهُ أَجْرَانِ أَجْرُ السِّرِّ وَأَجْرُ الْعَلَانِيَةِ**».

- وفي صحيح مسلم: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

- وقد عرّف رسول الله ﷺ الشرك الأصغر بأنه الرياء يقوم الرجل فيزين من صلاته لما يرى من نظر رجل إليه، وفي صحيح البخاري وصحيح مسلم: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ**».

- وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**من تعلم مما يبتغي به وجه الله ﷻ لا يتعلم**

إلا ليصيب به عرض من الدنيا لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة».

- وفي صحيح مسلم قيل لرسول الله ﷺ: «**أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه. قال: تلك عاجل بشرى المؤمن**».

أولاً: أشد ما يحبط العمل ويبطله ويعصف بثوابه خصلة الرياء، ومعناه أن يعمل الرجل صالحات الأعمال لكي يراه الناس، ويؤدي جلائل الأعمال ليسمع الناس بذكره ويتناقلوا أخبار أعماله، وأكثر من يبتلى بهذا الشرك الأصغر المقاتلون والعلماء وأصحاب التبرعات من الأغنياء، ولهذا جاء الحديث الشريف مبينًا مدى الخطورة التي يحدثها الرياء في أعمال هؤلاء حين تسعر النار أول ما تسعر بنماذج من هؤلاء المضحين، وكيف تنقلب تضحياتهم إلى دمار موبق يذهب بكل الحسنات.

ثانيًا: نعرف أغنياء قد يتبرع أحدهم بالملايين على ملأ من الناس، ثم يبخل على أقربائه وأرحامه بأقل القليل؛ لأنه يرى في الملأ من يروج له دعاية ولا يرى في صدقته على الأرحام إلا وجه الله الكريم، ويكون سلوكه عندئذ سلوك من جعل الدنيا أكبر همه، ولم يرج بالصدقة لقاء ربه.

ثالثًا: لا يجوز أن يتجاوز بالمؤمن خوف الرياء إلى ترك العمل الصالح. وقد قرأنا عن إبراهيم النخعي أنه قال: إذا قال لك الشيطان وأنت تصلي (صلاتك هذه رياء) فأطلها، وإذا هممت بفعل خير فقال لك هذا رياء فعجله مادامت نيتك منعقدة على فعل الخير، ويجوز للمؤمن أن يتبرع بمبلغ كبير على ملأ أو في حفل إذا كان المشروع خيرًا حقًا وكان قصد المتبرع أن يُقتدى به ويحذو حذوه الأغنياء، يقول الله تعالى: ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٧١]، وإذا وسوس الشيطان لبعض طلبة العلم فقال لهم: لا تعظوا ولا تخطبوا في الجمع؛ لأن في هذا رياء، فعليهم أن يخالفوه ولو وجد بعضهم من نفسه تقصيرًا إذ الكمال لله وحده والعصمة لأنبيائه.

رابعًا: لا ينقص أجر المحسن إذا تناقل الناس أمر حسناته وأعماله الصالحة حتى ولو سر بذلك؛ لأن شهادة المسلمين عند الله للعبد مصدقة على ألا يغتر العبد بذلك الذكر والحمد، وألا يسعى هو لترويجه.

اللهم سلِّم حسناتنا وإياكم مما يحبطها، وأخلص أعمالنا لوجهك الكريم، وأخلص قلوبنا بخالصتك.

***

من أحاديث الآداب

الزهد والرقائق

ما كان يتحلى به علماء السلف من آداب

هذا الفصل أخصصه -إنْ شاء الله- لما كان يتحلى به علماء السلف ﷺ من آداب جعلتهم موضع احترام الحكام والأمراء، وأكسبتهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، لقد كانوا أعجوبة عصورهم في الشجاعة لا تأخذهم في الحق لومة لائم، ملأ الإيمان قلوبهم وعمر الزهد نفوسهم؛ فكانوا ربانيين يمشون في الناس كأنهم مصابيح الظلام، كانوا على يقين أن أجل العبد في الكتاب، وأن رزقه في السماء، وأن كل شيء بقضاء الله، ومن ثم هانت عليهم مصائب الدنيا حتى لقد كان الموت في نظرهم ما هو إلا نقلة يقدم فيها العبد على ما قدم، ويتبدل بوجوه العبيد وجه الكريم الذي يغفر الذنب، ويقبل التوب.

جلس أحد علماء الصحابة واسمه سعيد بن عامر ﷺ في مجلس عمر ﷺ، فقال له عمر ﷺ -وما أحلاها وأعظمها من قولة: أوصني يا سعيد. فقال: إني موصيك بكلمات من جوامع الإسلام: اخش الله في الناس، ولا تخش الناس في الله، ولا يخالف قولك فعلك؛ فإن خير القول ما صدقه الفعل، وأحب لقريب المسلمين وبعيدهم ما تحبه لنفسك وأهل بيتك، وخض الغمرات إلى الحق حيث علمته ولا تخف في الله لومة لائم.

فقال عمر ﷺ: ومَن يستطيع هذا يا سعيد؟ قال: يستطيعه من ركب في عنقه مثل الذي ركب في عنقك. الله أكبر نعم العالم ونعم الحاكم، كم كان سعيد بن عامر عظيمًا في موعظته، وكم كان عمر عظيمًا في استجابته.

إن عمر ﷺ رسم للدنيا كلها كيف يؤخذ على يد القوي المبطل وكيف ينتصر للضعيف المحق. قال قتادة: خرج عمر ﷺ ومعه الجارود؛ فإذا امرأة قوية الملامح على ظهر الطريق فسلم عليها رضي الله عنها فردت عليه ﷺ ثم استوقفته فوقف فقالت له: هيه يا عمر، عهدتك وأنت تسمَّى عميرًا في سوق عكاظ تصارع الصبيان، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، اتق الله يا عمر في الرعية، واعلم أنه من خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر ﷺ فقال لها الجارود: قد اجترأت على أمير المؤمنين

وأبكيته. فقال له عمر: أتعرف من هذه؟ إنها خولة بنت حكيم التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، فكيف لا يسمع عمر قولها.

وهنا أنقل -أخي القارئ- إلى هذا الموقف الذي دار بين أحد علماء التابعين وبين الخليفة سليمان بن عبد الملك، دخل الخليفة سليمان بن عبد الملك المدينة فأقام بها ثلاثًا زاره أثناءها رجالات المدينة وعلماؤها، فقال سليمان لجلسائه: أما هنا رجل ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ نسأله ويحدثنا، فقيل له: هاهنا رجل يقال له أبو حازم الباهلي، فبعث إليه الخليفة فجاء رحمه الله. ودار بينهما حوار طريف وددت لو قرأه كل عالم ومتعلم بل وكل مسلم.

قال سليمان: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ أتاني وجوه المدينة ولم تأتني. فقال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، ما جرى بينك معرفة آتيك عليها. قال سليمان: صدقت. يا أبا حازم ما بالنا نكره الموت؟ قال: لأننا عمرنا دنيانا وخربنا آخرتنا فنحن نكره أن ننتقل من العمران إلى الخراب، قال سليمان: صدقت. كيف القدوم على الله تعالى؟ قال أبو حازم: أما المحسن؛ فكالغائب يقدم على أهله مسرورًا، وأما المسيء؛ فكالعبد الآبق يقدم على مولاه خائفًا محزونًا. قال سليمان: ما الذي لنا عند الله يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: لك عند الله ما ذكره في كتابه: ﴿**إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۞ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤].

قال سليمان: من أعقل الناس ومن أحمقهم؟ قال أبو حازم: أعقلهم من طلب الحكمة فتعلمها وعلمها، وأحمقهم من وضع نفسه في هوى رجل ظالم. فباع آخرته بدنيا غيره.

قال سليمان: ما أقرب الدعاء استجابة؟ قال أبو حازم: دعاء المنيبين إلى ربهم.

ثم قال سليمان: ما تقول فيَّ وفيما نحن فيه؟ قال أبو حازم: أعفني من هذا يا أمير المؤمنين.

قال: يا أبا حازم هي نصيحة تلقيها، قال أبو حازم: يا أمير المؤمنين، أما رأيت الجبابرة الذين سفكوا دماء الناس من أجل الدنيا؟ ماذا قالوا عند الله وماذا قيل لهم؟

فقال بعض الجلساء: بئس ما قلت يا شيخ. قال أبو حازم: كذبت إن الله أخذ ميثاق العلماء أن يبينوا للناس الكتاب ولا يكتموه. قال سليمان: يا أبا حازم، أصحبنا تصيب منا ونصيب منك (أي: تستفيد منا ونستفيد منك) قال أبو حازم: أخشى أن تغرني نعمتكم

فأركن إليكم، ولو شيئًا قليلاً، قال سليمان: أشر عليَّ يا أبا حازم. قال: هما كلمتان؛ إياك أن يراك الله حيث نهاك، وإياك أن يفقدك حيث أمرك.

قال سليمان: ادع لنا يا أبا حازم، فقال: اللهم إن كان سليمان وليك مطيعًا لأمرك فيسره للخير. وإن كان سليمان غير ذلك فخذ بناصيته إلى الخير والطاعة. وهنا قال سليمان: يا غلام هات مائة دينار، وأعطها لأبي حازم، فقال: يا أمير المؤمنين، لا حاجة لي بها لأني أخشى أن تكون هي كل مثوبتي على كلماتي إليك، وأنا أرجو عند الله ثوابًا لا تنهض له الدراهم.

وكان في مجلس سليمان أحد العلماء الذين يلازمونه فوجه أبو حازم الكلام إليه وقال: إن بني إسرائيل لما كانوا على الحق كان أمراؤهم يحتاجون إلى علمائهم. فلما رأى الناس تلك الحظوة أخذ الكثيرون يتعلمون العلم وكل همهم أن يوصلهم علمهم إلى الأمراء.

فاجتمع القوم على مطامع الدنيا، ثم دخلت بينهم المعاصي فسقطوا وانتكسوا، ولو أن العلماء صانوا دينهم وعلمهم لنجوا ونجا بهم أمراؤهم، ونالوا بصلاحهم وعلمهم مهابة الأمراء، ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ [آل عمران: ١٨٧].

***

من أحاديث الآداب

الترغيب في الإكثار من ذكر الموت

المؤمن يكثر ذكر الموت فيفيده ذكره أخلاقًا وفضائل يظهر أثرها في أعماله ومعاملاته، إذا ذكر المؤمن الموت علم أن قصة الحياة قصيرة لا تغر إلا الأحمق، وأن الآخرة هي الحياة الحقيقية؛ لأنها دار الخلد. ثم إن ذكر الموت يجعل العبد المؤمن مستعدًا للقاء الله، حريصًا على العمل الصالح؛ لأن كل ما في الحياة إلى فناء إلا وجه الله والعمل الصالح، يقول الله تعالى في سورة «الكهف»: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾ [الكهف: ٤٦]، ويقول النبي ﷺ: «**أكثروا ذكر الموت، فما من عبد أكثر ذكره إلا أحيا الله قلبه، وهوّن عليه الموت**».

وفي سنن ابن ماجه أن رجلاً من الأنصار قال: يا رسول الله، من أكيس الناس؟ (أي: أذكاهم) وأحزم الناس؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أكثرهم ذكرًا للموت، وأكثرهم استعدادًا للموت، أولئك الأشراف ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة**».

وللمؤمن إزاء الموت آداب يلتزمها، فهو أولاً يعتقد أن أشرف الموت وأسماه موت الشهداء؛ لأنهم قدموا لله أنفسهم وهي أهم ما يحرصون عليه، فكافأهم بحياة لا تزول أبدًا ووقاهم عذاب القبر وعرفهم أماكنهم في الجنة، يقول الله تعالى في سورة «محمد»: ﴿**وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۞ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ**﴾ [محمد: ٤- ٦].

ومن هذا المنطلق ترى المؤمن حريصًا على الشهادة، يسألها ربه ليتمتع بحياة الشهداء.

ومن آداب المؤمن ألا يتمنى الموت من ضرٍّ أصابه؛ فإن كان لا بدَّ قائلاً شيئًا حول الموت فليقل كما جاء في صحيح البخاري: «**اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**».

ومن أدب المؤمن أن يموت وهو حسن الظن بالله، واثقًا من عظيم رحمته وكريم عفوه على ألا يؤمنه حسن ظنه هذا من مكر الله بل يظل راجيًا رحمة الله، خائفًا من عذابه، ففي

صحيح مسلم يقول النبي ﷺ: «**لا يموتن أحدكم ألا وهو يحسن الظن بالله**».

هذا، ومما يهون على المؤمن الموت أن يقوي إيمانه باليوم الآخر حتى إذا بعث لم يستغرب البعث ولا يخاف؛ لأنه مؤمن حق الإيمان بلقاء الله، أما مَن هو في شك من الآخرة فيفاجأ وإذا بعث قال: ﴿**تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ**﴾ [النازعات: ١٢]، ويقول منكرو البعث حين يسمعون الصيحة: ﴿**قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا**﴾، ثم يجيب بعضهم بعضًا: ﴿**هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس: ٥٢].

هذا، والمؤمن يستكثر من الحسنات ويقلل من الذنوب، فيطمئن بهذا إلى رحمة الله وواسع عفوه وكرمه عن عيوبه؛ لأنه قدم على ما قَدّم، وواجه ربًّا رحيمًا سبقت رحمته غضبه.

جاء في سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تذكروا موتاكم إلا بخير**»، ويتفاءل المؤمن لمن يموت صائمًا أو محرمًا، ومن يموت يوم الجمعة؛ فقد روى أبو يعلى أن النبي ﷺ قال: «**مَن مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة وقي من فتنة القبر**»، أما من مات صائمًا أو محرمًا؛ فلعل الله ﷻ أن يبعثه على الحال التي مات عليها بمنه وفضله وكرمه.

هذا، والمؤمن يحترم الموت ويقوم للجنازة إجلالاً للذي خلق الموت والحياة ليبلو الخلق أيهم أحسن عملاً، وليجعل الموت مظهرًا من أعظم مظاهر القدرة الإلهية، ففي مسند أحمد أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، تمر بنا جنازة الكافر أفنقوم لها؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**قوموا لها؛ فإنكم لستم تقومون لها إنما تقومون إعظامًا للذي يقبض النفوس**».

ومن آداب المؤمن حيال الموت أن يعتقد أنه لن يقيم معه في القبر إلا عمله، أما الرزق والحطام والولد فما منهم من ينفعه في قبره، يقول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**يتبع الميت بعد موته ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله**».

هذا، والمؤمن لا يمكن أن يفكر في التخلص من الحياة؛ لأن الانتحار -والعياذ بالله- أوضح مظاهر اليأس من رحمة الله، ولا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون؛ ففي الحديث الذي رواه الشافعي -رحمه الله- يقول النبي ﷺ: «**مَن قتل نفسه بشيء في الدنيا عُذِّب به يوم**

القيامة»، وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**مَنَ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ شَرِبَ سَمًّا فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا، وَمَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ يَتَرَدَّى فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا**».

ومن آداب المسلم إزاء الموت أن يخلص الدعاء حين يصلي على ميت، وأن يدعو له بصدق، وإن كان لا يعرفه؛ فقد صلى رسول الله ﷺ على جنازة، فكان من دعائه كما جاء في صحيح مسلم: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ، وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ، وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ، وَأَهْلاً خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ، وَزَوْجًا خَيْرًا مِنْ زَوْجِهِ، وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ، وَأَعِذْهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ أَوْ مِنْ عَذَابِ النَّارِ**».

هذا، ولا بأس أن يزور المسلم قبر حميمه، فيسلم عليه ويقعد عنده، ففي ذلك ذكر وتذكار للحي وفيها أنس للميت- إنْ شاء الله.

هذا، وما أجمل أن يدعو الزائر للميت دعاءً مباركًا؛ لأن الميت كما جاء في الأثر شبه الغريق المتغوث ينتظر دعوة من أب أو أم أو ولدٍ أو صديق ثقة، فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها، وإن الله ﷻ ليدخل على أهل القبور من دعاء أهل الدنيا أمثال الجبال، وإن هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم والصدقة عليهم.

هذا، والمؤمن يصلح نيته ويخلصها لله ﷻ لأن الأعمال بالنيات، وفي مسند أحمد يقول رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بقوم عذابًا أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم**» وفي مسند أحمد قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله قبض روح عبدٍ بأرض جعل له فيها حاجة**».

نسأل الله ﷻ أن يرزقنا حياة صالحة وموتة طيبة، ويحشرنا إليه طيبين أطهارًا مسلمين مؤمنين موحدين.

***

من أحاديث الآداب

النهي عن حب الدنيا والإغراق في الشهوات

من أجمل آداب المؤمن أنه إذا قدر على نعيم الدنيا وأقبل عليه حطامها وتبرجت له شهواتها لم يندفع وراء شهوات نفسه، ولم يُغرق في طعامه وشرابه، ولم يتبع نفسه كل ما تشتهي حتى لا يكون كمن قال الله فيهم: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ [محمد: ١٢].

كان سلفنا الصالح ﷺ يكثرون قراءة آية كريمة من سورة «الأحقاف» يرون فيها لأنفسهم ردعًا عن الشهوات واقتصادًا في تناول اللذائذ مخافة أن تكون ملاذ الحياة على حساب نعيم الآخرة، تلك الآية هي قوله تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ**﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وحسبك أن رسول الله ﷺ قضى طفولته الغراء بين الفقر واليتم، فلما أقبلت عليه الدنيا وأمكنته الملذات طوى على الجوع بطنًا طاهر الأديم واختار على متاع الدنيا خالد النعيم، وكان من مأثور دعائه: «**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا**»، وفي صحيح مسلم وسنن الترمذي وابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا وقنعه الله بما آتاه**»، والكفاف كما عرَّفه بعض الأشياخ شبع يوم وجوع يوم، وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من غني ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه أوتي من الدنيا قوتًا**»، أي: كفافًا من الرزق على قدر حاجته وما يقيم أوده، وذلك لما يرى من سوء الحساب في أصحاب الشهوات.

لقد عرف الصالحون منذ القدم بالاقتصاد في طعامهم وشرابهم وشهواتهم مستصغرين شأن الشهوات ودنيا المتاع. روى الطبراني من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله مثقال حبة من خردل لم يعطها إلا لأوليائه وأحبابه من خلقه**»، وفي رواية للترمذي وابن ماجه: «**لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء**».

إنَّ المؤمن لا تستعبده مظاهر الغنى، ولا تتعبده بهارج الشهوات، ولا يربط همه بالحطام الزائل، ولقد أنكر نبينا ﷺ على المؤمن أن يستعبده الحطام والزائل، وأشاد بالمؤمن الذي تسيطر عليه روح التضحية في سبيل الله باذلاً في الله روحه غير مبتغ منصبًا ولا شهرة ولا رتبة من رتب الدنيا، جاء في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ** (نوع من القماش)، **إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ** (أي أن رضاه وسخطه متوقفان على ما يناله من حطام الحياة الزائل)، **تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلاَ انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ** (يعني لا يبالي أن يكون في مقدمة الجيش أو مؤخرته مادام الأمر في صالح المؤمنين)، **إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ** (يعني: أنه لا يبالي أن يكون ذا نفوذ في الجيش يستأذن وقتما شاء وتقبل شفاعته عند المسئولين).

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ نهى أن تكون أقصى أُمنية المؤمن، فقال: «**الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له**».

وللطبراني في (المعجم الصغير) أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أصبح حزينًا على الدنيا أصبح ساخطًا على ربه تعالى**»، وفي زيادة للحديث: «**ومَن تضعضع لغني لينال مما في يديه أسخط الله ﷻ**».

وفي سنن ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**إنه من تكن الدنيا نيته يجعل الله فقره بين عينيه، ويشتت عليه ضيعته، ولا يأتيه إلا ما كتب له، ومن تكن الآخرة نيته يجعل الله غناه في قلبه ويكفه ضيعته وتأتيه الدنيا وهي راغمة**».

إنَّ الفقر أشرف بالمؤمن من غنى يبطره ويستعبده، ولقد كان رسول الله ﷺ يتخوف على أمتنا أن تتعلق قلوبها بالغنى وطمع الدنيا والتنافس الشديد على حطامها الفاني ومتاعها الزائل، جاء في الصحيحين أن أبا عبيدة ﷺ عاد من البحرين يحمل مالاً من خراجها إلى المدينة فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة بالمال فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما انصرف من صلاته تعرضوا له فتبسم ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟**» قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «**فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ،**

وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ».

وللترمذي أنه ﷺ قال: «**يُجَاءُ بِابْنِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُ بَذَجٌ** (أي: كولد الضأن المولود)، **فَيُوقَفُ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: أَعْطَيْتُكَ وَخَوَّلْتُكَ وَأَنْعَمْتُ عَلَيْكَ؛ فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، جَمَعْتُهُ وَثَمَّرْتُهُ فَتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ، فَارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ. فَيَقُولُ لَهُ: أَرِنِي مَا قَدَّمْتَ؟ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، جَمَعْتُهُ وَثَمَّرْتُهُ فَتَرَكْتُهُ أَكْثَرَ مَا كَانَ فَارْجِعْنِي آتِكَ بِهِ. فَإِذَا عَبْدٌ لَمْ يُقَدِّمْ خَيْرًا فَيُمْضَي بِهِ إِلَى النَّارِ»**.

وروى البزار بسند جيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم وهما مهلكاكم**».

ولقد كان آل محمد مثلاً أعلى في الصبر على شظف الحياة وخشونة العيش، ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ ما شبع من خبز حنطة ثلاثة أيام تباعًا ولو شاء لشبع، ولكنه يؤثر على نفسه وكان يعصب بطنه بعصابة من الجوع. ولما قام رسول الله ﷺ عن حصير إذا هو قد أثر في جنبه، فقال له بلال: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء، فقال عليه والصلاة والسلام: «**ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها**».

* * *

من أحاديث الآداب

(١) التوبـــــــة

من محاسن الإسلام أنه لا يوصد الأبواب في وجه العصاة، بل إنه ليفتح لهم أبواب الرجاء ويبشرهم أن أبواب التوبة مفتوحة إلى يوم القيامة، وما عليهم إلا أن يبادروا بالتوبة قبل أن يدهمهم الموت وتضيع فرصة الأعمال، يقول ربنا ﷻ في أواخر سورة «الزمر»: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ**﴾.

ومن محاسن الإسلام أن التوبة سهلة جدًّا؛ ففي حين نرى النصارى يجعلون للتوبة مراسم وتعقيدات نرى الإسلام يكتفي من العاصي بكلمات قليلة قد يقولها في نفسه أو قد يقولها على ملأ. في النصرانية إذا اقترف المرء ذنبًا وأراد أن يتوب فإن عليه أن يذهب إلى قس معين ويجلس على كرسي معروف ويفضح نفسه أمام القسيس فيحكي بتفصيل مخجل كيف اقترف الذنب، وبغير ذلك لا تتم له توبة في عقيدتهم، في حين أن الإسلام يكتفي من العبد المسلم إذا أراد التوبة أن يخاطب الله كفاحًا بدون واسطة فيهتف باسم أكرم الأكرمين: يا رب تبت إليك ورجعت إليك وندمت على ما فعلت وعزمت ألا أعود إلى ذنب يغضبك فاغفر لي يا رب واقبلني، وإذا أتبع هذا الكلام بدمعة ندامة حفظ الله عينيه أن تمسها النار، وبمجرد هذه التوبة يجب الله ﷻ ما قبل التوبة، ويخرج التائب نقيًّا كيوم ولدته أمه.

ومن كريم العفو الغفور الوهاب أنه يفرح بتوبة عبده العاصي؛ لأن جميع البشر صنع يديه خلقهم ليعبدوه وسخر لهم ما في السموات وما الأرض ليوحدوه ويشكروه، وجعل لدمائهم وحياتهم حرمة حتى لقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه: «**لزوال السموات والأرض أهون عند الله من قتل مؤمن**» (رواه مسلم).

والله ربنا ﷻ لا ينكر على العبد أن يخطئ؛ فكل بني آدم خطاء، وفي الحديث الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»، وفي صحيح مسلم أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي

حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله، أصبت حدًّا فأقمه عليَّ، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال: «**أحسن إليها، فإذا وضعت فأتني بها**». ففعل فأمر رسول الله ﷺ فشدت عليها ثيابها (كي تموت مستورة) ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها، فقال عمر ﷺ: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت. فقال عليه الصلاة والسلام: لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة ولسعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ﷻ.

- وروى الترمذي عن ابن عمر ﷺ أنه سمع رسول الله ﷺ سبع مرات يقول ما معناه: (كان الكفل من بني إسرائيل لا يتورع عن ذنب عمله، فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارًا مقابل الفاحشة، فلما هم بها بكت وأرعدت وذكرت له أنه لم تعمل ذلك قط وأنها ما حملها على ذلك إلا حاجة فقال لها الكفل: اذهبي فهي لك، ولا والله لا أعصي الله بعدها أبدًا فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه: إن الله قد غفر للكفل فعجت الناس من ذلك (أي: لما عرفوه من ذنوب ذلك الرجل) .

- وفي الصحيحين حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفسًا ثم أتى راهبًا ليتوب فسدَّ في وجهه باب التوبة فقتله مكملاً المائة، ثم أتى عالمًا ففتح أمامه باب التوبة على أن يرحل عن بلده التي اقترف بها جرائمه؛ لأنها أرض سوء، فتوجه إلى بلد آخر حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فأتاهم ملك في صورة آدمي فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له، فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر فجعل من أهلها، وفي رواية: «**فأوحى الله لهذه أن تباعدي، ولهذه أن تقربي؛ فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره** (أي: عثر عليه بعد ضياعه)، **وقد أضله بأرض فلاة**».

- وفي معجم البغوي ورواه الطبراني والبزار أن رجلاً طويلاً أتى النبي ﷺ فقال: أرأيت من عمل الذنوب كلها ولم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها، فهل لذلك من توبة؟ قال: «**فهل أسلمت؟**» قال: أما أنا فأشهد أنه لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «**تفعل الخيرات وتترك السيئات فيجعلهن الله خيرات كلهن**». قال: وغدراتي وفجراتي؟ قال: «**نعم**»،

فقال: الله أكبر، فما زال يكبر حتى توارى.

أولاً: لو تاب المرء وهو في حال صحته ولو قبل موته بدقيقة فإنه يرجى له المغفرة، وقديمًا تاب أحد أصحاب النبي وأسلم وقاتل حالما أسلم في أحد فقتل فأخبر النبي ﷺ أن الله قد غفر له وكتبه في الشهداء مع أنه لم يصل له ركعة واحدة.

ثانيًا: شروط التوبة أربعة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم المؤكد على ترك الذنوب. ومداومة العمل الصالح، وفي هذا يقول الله تعالى في سورة طه: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى**﴾ [طه: ٨٢].

ثالثًا: الذنوب نوعان أحدهما ظلم العبد نفسه كشارب الخمر والمتكاسل عن الصلاة وكثير التخلف عن الجماعة، أما الثاني؛ فهو ظلم للعباد بالقتل والسرقة والزنا. والنوع الأول مغفرته سهلة إن شاء الله، أما حقوق العباد فلا يغفرها ربنا إلا أن يستباح صاحبها فيعفو ويسمح.

رابعًا: الكبائر خطيرة، ولعل من اجتنب الكبائر وأصاب اللمم في غير إصرار لعله إن شاء الله أن يدخله الله في رحمته ويتوب عليه، يقول الله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ [النجم: ٣٢]، لكن كثرة اجتراح الصغائر قد تحولها إلى كبائر؛ فمن أدمن النظر إلى المحرمات وتابع ببصره النساء فقد فتح باب ذرائع الزنا، وعندئذٍ تتحول اللمم إلى كبائر، وفي الأثر: «**لا كبيرة مع الإصرار، ولا صغيرة مع الاستغفار**».

خامسًا: والكبائر مختلف في عددها ونوعها، فمن العلماء من عدها سبعًا، ومنهم من أوصلها سبع عشرة، وقال بعضهم: بل سبعين، ولعل أعدل الآراء رأي أبي طالب المكي الذي أوصلها سبع عشرة، وهي: الشرك، والإصرار على المعاصي، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله، وشهادة الزور، وقذف المحصنات، واليمين الغموس، والسحر، وشرب الخمر، وأكل مال اليتيم ظلمًا، وأكل الربا، والزنا، وعمل قوم لوط، والقتل، والسرقة، والفرار يوم الزحف، وعقوق الوالدين.

نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من التوابين بالإقلاع عن الذنب ومن المتطهرين من المعاصي بالحسنات.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۞ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۞ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۞ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَابًا**﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧١].

(٢) التوبة والاستغفار

إنَّ من آداب المسلم إذا أذنب أن يعلم أن له ربًّا غفورًا يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ويزيدهم من فضله، ومن ثم فالمؤمن لا تستبد به السيئة أو تطمسه الغفلة أو توئسه المعصية من رحمة الله، بل إن بعض المسلمين ربما تأخذ المعصية بيده إلى طريق الإنابة الصحيحة ثم إلى الله ﷻ وإلى رضوانه وجناته. لقد اقتضت حكمة الله أن يخلق الإنسان خطّاءً منذ أودع فيه غرائزه وأعده للحياة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۞ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**﴾ [طه: ١٢١، ١٢٢]، ويقول النبي ﷺ: «**كلُّ بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابين**»، ويقول ربنا ﷻ فيما يرويه عنه نبيِّه: «**يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**».

العبد يخطئ والرب يرحم ويغفر، ورحمة الله سبقت غضبه، ولو أن العباد لا يخطئون لصارت بعض الأسماء الله الحسنى غريبة المدلولات صعبة المعاني لا تدركها العقول إذ ما معنى الغفور والتواب وغافر الذنب وقابل التوب والعفو وواسع المغفرة إذا كان العباد يخطئون، لقد كان رسول الله ﷺ لا يفتأ مستغفرًا لذنبه، جاء في صحيح مسلم أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**يا أيها الناس، توبوا إلى الله واستغفروه؛ فإني أتوب إلى الله في اليوم مائة مرة**»، وفي صحيح مسلم نفسه: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى**

رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي، وَأَنَا رَبُّكَ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ».

إنَّ الخطيئة أحيانًا تكون بداية صلة بالله؛ ففي الحديث المتفق عليه أن رجلاً أصاب من امرأة قبلة فأتى النبي ﷺ فأخبره فأنزل الله تعالى في سورة «هود»: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود: ١١٤]. فأخبر النبي الكريم ذلك المسلم المذنب أن الصلاة التي شهدها مع الجماعة كفارة لما فرط منه، وأن هذا الحكم للمسلمين عامة، وروي في الحديث: «**التائب من الذنب كمن لا ذنب له**»، وفي سورة «القصص» يبيِّن الله ﷻ مدى سرعة استجابته لعبده المستغفر التائب، فيقول يذكر موسى: ﴿**قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ**﴾ [القصص: ١٦].

وفي سورة «آل عمران» صورة مؤنسة بديعة لبشرى الاستغفار يقول فيها ربنا: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

ومن أجل فضيلة الاستغفار؛ فإن المسلمين يستغفر بعضهم لبعض بظهر الغيب فيغفر الله لهم بدعاء بعضهم لبعض، يقولون: ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان فيغفر الله لهم، وكان عليه الصلاة والسلام يجعل الاستغفار وردًا يوميًّا ويقول: «**تضرعوا إلى ربكم في الرخاء، فإنه يقول: مَن دعاني في الرخاء أجبته في الشدة، ومَن سألني أعطيته، ومن تضرع إليَّ رحمته، ومَن استغفرني غفرت له**».

والمؤمن يستغفر له أخوه المسلم، فتقول الملائكة: «**ولك بمثل**»، وفي سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «**يا ابن آدم، إنك ما رجوتني ودعوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك**»، وفي مسند أحمد: «**إن إبليس قال لربه: بعزتك وجلالك لا أبرح أغوي بني آدم ما دامت الأرواح فيهم، فقال الله ﷻ: فبعزتي وجلالي لا أبرح أغفر لهم ما استغفروني**».

ومن فضل الله على العباد أنه لا يغلق باب التوبة إلى يوم القيامة ويلاحق العبد بالمغفرة ما لم يغرغر بنفسه، فمن تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها غفر الله له، سبحانه يداه مبسوطتان للتائبين ليلاً ونهارًا.

وفي (مصابيح السنة): «**أَوَّلُ مَا يَقُولُ اللهُ لعبادِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: هَلْ أَحْبَبْتُمْ لِقَائِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ يَا رَبَّنَا. فَيَقُولُ: لِمَ؟ فَيَقُولُونَ: رَجَوْنَا عَفْوَكَ وَمَغْفِرَتَكَ. فَيَقُولُ: قَدْ وَجَبَتْ لَكُمْ مَغْفِرَتِي**».

وفي صحيح البخاري: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَي رَبِّ. حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ. فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ**».

وفي صحيح مسلم: «**والذي نفسي بيده، ولو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر الله لهم**».

وفي صحيح مسلم: «**إِنَّ لله مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وفي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**أمر الله بعبد إلى النار فلما وقف على شفتها التفت فقال: أما والله يا رب إن كان ظني بك حسن. فقال الله تعالى: ردوه فأنا عند ظن عبدي بي. فغفر له**».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يستر الله على عبد ذنبًا في الدنيا إلا ستره عليه في الآخرة**».

وفي مسند أحمد ما يفيد أن العبد المسلم إذا لم يظلم العباد فكل ذنوبه سهلة المغفرة بإذن الله، فقد روى أحمد -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**الدَّوَاوِينُ عِنْدَ الله ﷻ ثَلَاثَةٌ: دِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ؛ فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾، وَأَمَّا الدِّيوَانُ**

الَّذِي لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا؛ فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ أَوْ صَلَاةٍ تَرَكَهَا، فَإِنَّ اللهَ ﷻ يَغْفِرُ ذَلِكَ، وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا؛ فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا الْقِصَاصُ لَا مَحَالَةَ».

ألا ما أجمل أن تحدوك خطيئتك إلى رجاء وجه الله وانتظار إحسانه والأوبة إليه، فلقد قال رسول الله ﷺ: «**ما من شيء أحب إلى الله من الشاب التائب**».

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۞ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۞ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا**﴾ [نوح: ١٠- ١٢]، ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٥- ١٣٦].

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

التسليم المطلق لأمر الله ورسوله

من الآداب العليا التي يتحلى بها المؤمن أنه يسلم تسليمًا مطلقًا لأمر الله ورسوله، ولا يبقي لنفسه أي اختيار إزاء ما يقضي به بالله ورسوله، وإلى هذا تشير الآية الكريمة في سورة «الأحزاب»: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِينًا**﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وفي سورة «النساء» يعلن ربنا ﷻ لرسوله ﷺ أن من لا ينصاع لحكم رسول الله ولا يسلم لأمره فهو غير مؤمن ولتأكيد هذا الأمر أقسم الله عليه بذاته العظيمة فقال ﷻ: ﴿**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء:٦٥].

وقد قرأنا في السيرة المطهرة أن عمر بن الخطاب ﷺ بدرت منه بادرة واحدة خالف فيها هذه القاعدة العظيمة فظل نادمًا على موقفه ذلك يستغفر كلما تذكره إلى أن مات ﷺ. كان ذلك الموقف حين أراد رسول الله ﷺ أن يكتب عقد صلح الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو مندوب قريش، وكان المسلمون في جو من الاستياء وخيبة الرجاء؛ لأن رسول الله ﷺ وعدهم أن يدخلوا المسجد الحرام ويعتمروا ويحلقوا رءوسهم أو يقصروا دونما خوف من المشركين، وكانوا واثقين من عهد الله لرسوله، ولهذا كانت الفتنة عظيمة عندما أصر مندوب قريش أن يعود المسلمون في عامهم ذلك ويعودوا في عامهم المقبل.

وكان من شروط المعاهدة شرط رآه المسلمون مجحفًا مذلاً وهو الشرط الذي ينص على أن يرد المسلمون من يأتيهم من مكة مؤمنًا (أن يردوه إلى المشركين)، وأما إذا ارتد مسلم وذهب إلى المشركين مرتدًا فليس على المشركين أن يعيدوه إلى المسلمين، وزاد من عاصفة الفتنه أن مندوب قريش تعنت في إملاء صيغة المعاهدة حين بدأ علي ﷺ يكتبها فرفض كلمة بسم الله الرحمن الرحيم، وقال لعلي: اكتب باسمك اللهم، فإنا لا نعرف هذه الكلمة، فتردد علي فقال له رسوله الله ﷺ: اكتب باسمك اللهم. ورفض كلمة محمد رسول الله، وقال لعلي:

اكتب محمد بن عبد الله، فتوقف علي أكثر من المرة الأولى فقال له رسول الله ﷺ: امسح ما كتبته واكتب محمد بن عبد الله.

ولما توقف علي مسحها رسول الله ﷺ هو نفسه، وهنا أقبل عمر كأنه العاصفة العاتية، وقال لأبي بكر: أليس هو رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر: بلي. قال: أولسنا بالمسلمين وهم المشركون؟ قال: بلي. قال عمر: فعلام نعطي الدنية (أي نقبل الذل) في ديننا؟ فقال له أبو بكر: يا عمر الزم غرزه (يعني أمره) فإني أشهد أنه رسول الله. قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله. ثم توجه إلى رسول الله ﷺ فأعاد ما قاله لأبي بكر فقال له رسول الله ﷺ في النهاية: «**أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعني**».

وزاد من آلام عمر أنه أثناء كتابة المعاهدة أقبل أحد المؤمنين الذين كانوا يعذبون بمكة وقد هرب من سجنه في قيوده الحديدية يرسف فيها واستجار برسول الله وبالمؤمنين أن ينقذوه من العذاب. كان ذلك هو أبا جندل ابن مفاوض قريش سهيل بن عمرو فقال أبوه لرسول الله ﷺ: لقد سرت المعاهدة، فقال رسول الله ﷺ: صدقت ورده مع أبيه وهو يصيح ورسول الله ﷺ يقول له: اصبر أبا جندل فإن الله جاعل لك وللمؤمنين بمكة مخرجًا.

وبلغ الأمر منتهى الخطورة حين رأى المسلمون أن رسول الله ﷺ لان لمندوب قريش كل ذلك اللين، واشتد مع الصحابة كل تلك الشدة حتى إنه لم يشاورهم في أمر السلم. ولهذا فقد جلسوا بعد المعاهدة ساهمين يفكرون كيف رجعوا دون عمرة، وقد وُعدوها، ورسول الله ﷺ يقول لهم: وعدني ربي ولم يخلفني؛ لأننا سنعتمر في عامنا القابل ثم أمرهم أن ينحروا ما معهم من الهدي فلم يقم أحد منهم لينحر هديه، فدخل على زوجته أم سلمة وهو متألم فقالت له: إن أصحابك لن ينحروا هديهم ويتحللوا إلا إذا سبقتهم إلى هذا الأمر فعندئذ يقتدون بك، فخرج إليهم رسول الله ﷺ ونحر هديه فاقتدى به كل الصحابة وتبعهم سائر الناس وانتهى الأمر تلك النهاية التي ظنها كل المسلمين جائرة مجحفة بحقهم.

والحق أن رسول الله ﷺ فعل كل ذلك بوحي من الله، وكان واثقًا أن تلك الهدنة ستكون لها آثار عظيمة في تثبيت مركز الدعوة ونشر الدعاية لها، ثم إنه سيفرِّغ المسلمين لقتال كثير من الأعداء الآخرين كأهالي خيبر وبعض المنافقين، وهذا كله أفضل من قتال قريش لأجل العمرة.

رجع المسلمون متألمين مع أنهم عادوا بالخير كل الخير عادوا وقد أمنوا شر قريش لعشر سنوات عادوا وقد اعترفت بهم قريش قوة لها شأنها، وأثبتوا للدنيا أن دينهم بعيد عن الانتقام والتشنجات وأنهم أعظم سياسة ورفقًا من أعدائهم، فلا عجب أن أسلم بعد الحديبية كثير من عقلاء قريش ومنهم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.

نعم لقد عاد المسلمون فاتحين كما ذكر ربنا ﷻ؛ إذ قال لرسوله: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا**﴾ [الفتح: ١]، وقال في سورة «الفتح» أيضًا: ﴿**فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: ٢٧]، وقال أيضًا في سورة «الفتح» التي هي سورة الحديبية: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح: ١٨]، يقول الزهري: ما فتح الله على المؤمنين فتحًا مثل فتح الحديبية؛ إذ دخل في الإسلام خلق كثير، ودليل ذلك أن جيش المسلمين في الحديبية كان ألفًا وأربعمائة وبعده بسنتين جاء فتح مكة وجيش المسلمين عشرة آلاف.

أما الشرط الذي رآه المسلمون مجحفًا وثار من أجله عمر وهو إعادة المؤمنين إلى مكة هذا الشرط قد جاء ببركة عظيمة؛ فقد فر من المعذبين بمكة مؤمن شجاع من قريش هو عبيد بن أسد ولقبه: أبو بصير، وهاجر إلى المدينة فأرسلت قريش وراءه فارسين من فرسانها ليرجعاه إلى العذاب فقال له رسول الله ﷺ: يا أبا بصير، ارجع إلى مكة، فإنا قد عاهدنا القوم ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك وللمؤمنين فرجًا، فحزن أبو بصير لكن الرجلين شدا وثاقه فسار معهما وتظاهر في الطريق بملاطفتهما فغفلا عن حراسته ففك وثاق نفسه واخترط سلاح أحدهما فقتل به صاحبه وفر الآخر خوفًا ورجع إلى رسول ﷺ يخبره بما فعل فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ**».

وفهم أبو بصير من قول رسول الله ﷺ كأنه يوعز له أن يكوِّن فرقة فيها رجال كثيرون ليؤدب قريشًا في طريق قوافلها، وشرع حالاً في الأمر وكون جماعة روعت قريشًا وقوافلها، وكان أول من حضر إليه وانضم إلى فرقته أبو جندل بن سيهل بن عمرو الذي رده رسول الله مع أبيه إلى مكة، حتى جاء رجال من قريش يرجون رسول الله ﷺ أن يقبل من يأتيه مؤمنًا، وقبل رسول الله رجاءهم متفضلاً عليهم وكتب إلى أبي بصير أن يطلق من عنده من رجال

قريش ويرد عليهم أموالهم فوصل الكتاب أبا بصير وهو يجود بأنفاسه فوضع الكتاب على صدره ونفذ أمر رسول الله فرد الرجال ومن بينهم صهر رسول الله ﷺ أبو العاص بن الربيع الذي أسلم وعاد إلى زوجته زينب بنت رسول الله، كل تلك البركات حدثت من صلح الحديبية الذي ثار عليه وكرهه عمر لكن أمر الله فوق كل أمر، ولربما كره المؤمن أمرًا والخير كل الخير فيه.

اللهم ارزقنا الرضا والتسليم بكل أمر تقضيه.

من أحاديث الآداب

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ربما تمر على جماعة من الصبية جالسين على باب مسجد من المساجد يتصايحون أثناء الصلاة وكأن الصلاة لا تعنيهم وكأنهم لم ينشئوا في بيت مسلم يرون فيه الصلاة ويتعلمون آداب الصلاة وحرمتها وقداستها، فإذا نصحتهم أن يصمتوا احترامًا للصلاة أو يدخلوا ويؤدوها سخروا منك، وإذا نهرتهم أسمعوك ضعف ما تسمعهم، وقد يمر بك أحد المصلين فيقول لك: لا تنشب نفسك فيهم؛ فإذا كان آباؤهم لا يهتمون بهم ولا يربونهم، أفأنت أولى بهم من آبائهم، هنالك يثبط عزمك، ويصبح باب المسجد بؤرة صراخ وضجيج يلقى المصلون منها عناءً وتختلط عليهم ألفاظ الصلاة، وقد يكون آباؤهم في المسجد يصلون ويسمعون أصوات أبنائهم فيعرفونها، ولكنهم لا يكلمونهم أو ينصحونهم إما كسلاً وعدم اكتراث وإما خوفًا من أمهاتهم بعد أن أصبح للنساء في البيوت حكم ونفوذ وسلطان.

وقد تمر بك سيارة يسوقها صبي أو شاب وكأنها سهم أو طائرة نفاثة تكاد تحرث الطريق لعنفها، فإذا لقيت سائقها ونصحته احتقر كلامك واندفع بها ليحثو في وجهك ترابها، فإذا رآك أحد معارفك وأنت على تلك الحال قال لك: يا أخي، لا تتدخل في ما لا يعنيك لئلا تلقى ما لا يرضيك، فلا تملك إلا أن تسكت لتخلو الساحة للأشقياء وتتوفر الراحة للسفهاء، ويصبح منكرو المنكر متهمين بالبلادة والحماقة والتطفل وقله الذوق؛ لأنهم يدسون أنفسهم وأنوفهم فيما لا يخصهم، وقد تجد شفيقًا عليك ينصحك عليهم بألفاظ الحديث الشريف:

«**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**»، ولو أنصف الناصحون لشدوا على يدك ونفخوا من روحهم في عزيمتك، وضموا أصواتهم إلى صوتك ليرهبوا العابثين، والمرء قوي بأخيه، والتعاون على الخير من سيما المجتمع الإسلامي المتناصح، وفي هذا يقول الله تعالى يذكر اللعنة التي حلت ببني إسرائيل على ألسنة أنبيائهم وبين سببها، فيقول في سورة «المائدة»: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨- ٧٩]، وفي صحيح مسلم: «**مَن رأى منكم منكرًا؛ فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»، ومعنى قوله ﷺ: (**وذلك أضعف الإيمان**) أن الذي يمر على المنكر يقترف فلا يهتز قلبه وشعوره إنكارًا واستنكارا؛ فإنه عندئذٍ لا يكون مؤمنًا.

إنَّ من آداب المسلم ألا يخشى في الله لومة لائم، وأن يكون شجاعًا في مواجهة المنكر، وأن يعتقد بملء قلبه أن صاحب المنكر جبان وإن أبدى شجاعة، وأن أهل المعاصي ضعفاء وإن تكلموا من مركز قوة، وأن حزب الله مهما طال الزمن وعربد الفساد هم الغالبون وهم المفلحون، وفي الحديث المتفق عليه عن جرير بن عبد الله أنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم، وفي الحديث الصحيح الذي رواه أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه شرح للناس تفسير قوله تعالى من سورة «المائدة»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ١٠٥].

ويبدو أن الناس فهموها بأن كل إنسان مسئول عن هداية نفسه ولا شأن له بغيره، فقال ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه** (أن يمنعوه من الظلم) **أوشك الله أن يعمهم بعقاب منه**» (أي: دون تمييز بين محسنهم ومسيئهم)، وبهذا أوضح لهم الصديق ﷺ أن الآية تعني أن يبذل المؤمن جهده في إنكار المنكر بشتى الوسائل، وبعدئذٍ لا يضره معصية العاصي وظلم الظالم إذا هو اهتدى إلى ربه.

هذا، وإن إنكار المنكر يتطلب من المؤمن لباقة تتناسب ومركز الإنسان الذي صدر عن المنكر، فالإنكار على مسئول كبير ليس كالإنكار على صبي صغير، والناس ينزلون منازلهم،

وفي الحديث الذي رواه الديلمي ما يفيد أن المتصدر للنصيحة يشترط فيه ثلاث خصال: أن يكون رفيقًا بمن يأمر، رفيقًا بمن ينهى، عالمًا بما ينهى عنه، عدلاً فيما ينهى.

هذا، وعلى من يوفقه الله للنصيحة وتغيير المنكر أن يكون جريئًا موقنًا أن التصدي للمنكر لا يقرب أجلاً، وأن المتصدي له هو من الفئة المنصورة التي ورد ذكرها في الحديث الشريف الذي رواه الحاكم قال رسول الله ﷺ: «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة**».

هذا، ومن آداب إنكار المنكر أن تراعي مركز من تنكر عليه ففي الحديث الذي رواه أحمد يقول رسول الله ﷺ: «**من أراد أن ينصح لسلطان بأمر فلا يبده له علانية، ولكن ليأخذ بيده فيخلو به، فإن قبل منه فذاك وإلا كان قد أدى الذي عليه**»، وتزداد مسئولية النصيحة على جلساء السلطان الذين يحضرون تصرفاته، ففي الحديث الذي رواه الديلمي قال رسول الله ﷺ: «**يكون في آخر الزمان قوم يحضرون السلطان يحكم بغير حكم الله فلا ينهونه، فعليهم لعنة الله**».

هذا، وإذا فشا المنكر فلم يجابهه العلماء والخاصة ومخالط السلطان كان ذلك إيذانًا بعذاب لا يبقي ولا يذر، جاء في الحديث الذي رواه أحمد أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ﷻ لا يعذب العامة بعمل الخاصة** (أي: لا يعذب الشعب بذنوب بعض المترفين المفسدين) **حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الخاصة والعامة**».

هذا، وما أجمل أن تكون نفس المؤمن لوامة فينكر على نفسه عملها إذا أساءت، وينصب من عقله ومروءته وحيائه واعظًا لنفسه يأمرها وينهاها؛ ففي الحديث الذي رواه الديلمي يقول رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله بعبده خيرًا جعل له واعظًا من نفسه يأمره وينهاه**».

هذا، وما أجمل أن يستقبل المؤمن كلام أخيه إذا أنكر عليه منكرًا أن يتقبل كلامه شاكرًا لا أن يدعي الكمال ويغضب من النصيحة بل يحمد الله على أن رزقه من يرشده إلى عيوب نفسه، فقد روي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أهدى المرء المسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة يزيده الله بها هدى أو يرده بها عن ردى**».

من أحاديث الآداب

الرضا بالقضاء والقدر

إني محدث الإخوة القراء عن أدب المؤمن إزاء ما يصيبه من أحداث الحياة وما يجري من أقدار الله الحكيمة من غنى وفقر وصحة ومرض وعسر ويسر. إن الكثرة الغالبة من الناس ينظرون إلى ما يجري في الكون نظرة سطحية فهم يئولون قضاء الله وقدره تارة حسب مصالحهم، وتارة أخرى حسب جهالتهم، يقول ربنا ﷻ في سورة «القصص» يتحدث عن موكب قارون: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ**﴾ [القصص: ٧٩، ٨٠].

وهكذا تستقبل النفوس البشرية أحداث الدنيا وتتناولها بأسلوبين: أولهما: نظرة الذين يريدون الحياة الدنيا، والثاني: نظرة الذين أوتوا العلم.

هنالك النظرة السطحية التي تسيطر على أهل الجهالة الجاهلة والمصالح الزائلة، وهنالك النظرة المتأملة العالمة التي ترى أن كل شيء بقدر وكل قدر بحكمة يقول ربنا ﷻ في النظرتين في سورة «التوبة»: ﴿**وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾ [التوبة: ٥٨]. هؤلاء هم أهل السطحية والنظرة القصيرة ثم مضى ﷻ يعلمهم النظرة الصادقة المتفهمة: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ**﴾ [التوبة: ٥٩].

من الناس مَن إذا آتاه الله مالاً اعتقد أنه راضٍ عنه مكرم له، وإذا قَدرَ عليه رزقه اعتقد أنه يهينه وهو ساخط عليه، ونسي أن العطاء والحرمان عند الله كلاهما اختبار يبلو به الله الناس أيهم أحسن عملاً.

إنَّ ربك ﷻ قد يسوق إلى عبد خزائن الأموال فتورثه سخط الله ولعنته وعذابه، وقد يحرم عبدًا قوت ليلته وهو راضٍ عنه يعد له في آخرته وعقبى دنياه سعادة الدارين، ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ**﴾ (أي: اختبره وامتحنه) ﴿**رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۞ وَأَمَّا**

﴿إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ [الفجر:١٥، ١٦]، ثم يتبع ربنا هاتين الآيتين بكلمة ردع فيقول: ﴿كَلاَّ﴾ ومعناها: (لا يجوز اعتقاد هذا) فالعبرة بما يترتب على المال من نتائج إذ المال ليس غاية بذاته: ﴿بَل لاَّ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۞ وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۞ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا ۞ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧- ٢٠].

إذا جرى على المؤمن قضاء يؤلمه علم أن لله حكمة حين يعطي وحين يمنع، والمؤمن إذا أعطى استقبل العطاء بشكر الله والولاء له، فينال منزلة الشاكرين، وإذا جرى على المؤمن قضاء فيه ضراء علم أن كل أمر تسير به هذه الدنيا لا يمكن إلا أن يتم بقدر الله وإرادته، وإذن فما دام الأمر أمره والقدر قدره فلابد من الرضا والتسليم، صحيح أن المؤمن قد تبكيه المصيبة وقد تفرحه النعمة لكن حزنه أو فرحه لا يغير شيئًا من إيمانه بالله وحبه له؛ إذ له الحمد معطيًا، وله الحمد آخذًا؛ إذ الخلق له وكلهم إليه راجعون.

إنَّ وراء أقدار الله ﷻ حكمًا بالغة باهرة، وقدرة عظيمة قاهرة، ولَرُبَّ خواض في مسائل القضاء مثلاً يتأول الأحداث بظاهر من الأمر، فيقول لك مثلاً: إن إبراهيم عليه السلام نفى زوجته الجارية المصرية بوادٍ غير ذي زرع؛ لأن زوجته الحبيبة سارة لم تطق رؤيتها. حاشا لأبي الأنبياء الأمة القانت الحنيف أن يقترف هذا الظلم، إن هاجر نفسها رضي الله عنها حلت الإشكال حين تبعته آخذة بطرف ثوبه تسأله: أأنت فعلت بنا هذا من عندك أم هو أمر أمرك الله به؟ فقال عليه السلام: «**بل أمر أمرني الله به**»، وكم كانت تلك القسوة الظاهرة رحمة وبركة لقد كانت مقدمة لبناء خير بيت وضع للناس، ولبعثة أكرم نبي من ذرية الزوجة الجارية ألا وهو رسول الله ﷺ.

ومثل هذا يقال في إلقاء يوسف في الجُب فظاهر الأمر قسوة وقضاء مؤلم وحقيقة الأمر أن يعقوب سلم يوسف لأخوته وهو يعلم أنهم سيلقونه في الجُب، لقد كان عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلمون، كان يعلم أن يوسف عليه السلام سيبعث نبيًّا في مصر، يهدي به الله الناس، ويفرج به عنهم ضوائق القحط، وأنه سيكون من ذريته شيخ أنبياء بني إسرائيل موسى كليم الله، كان يوسف نفسه يعلم ذلك: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، ولما جاء البشير بيوسف قال يعقوب لأبنائه: ألم أقل لكم أني أعلم من الله ما لا تعلمون.

لقد ذهب بصر يعقوب لطول مدة الفراق وعظمة البلاء، لكنه ظل واثقًا أن الله ﷻ صادق الوعد، وأنه سيرد عليه يوسف نبيًّا صديقًا مبارك الناصية والحياة مظهرًا من كل ما تعرض له من فتن: ﴿**وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [يوسف: ٥٦].

ولقد كان منظر العبد الصالح وهو يخرق سفينة المساكين، ويقتل ابن المؤمنين، ويبني الجدار الذي تحته كنز وهو وموسى جائعان حين أبى لؤماء القرية أن يضيفوهما، أقول: كانت تلك المناظر مذهلة لكن القضاء العظيم والقدر الحكيم كانا يخبئان وراء تلك التصرفات الغريبة خيرًا وبركة.

إنَّ المؤمن يتصف بالرضا والتسليم وينزه ربه أن يكون قدره دون حكمة، تعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم.

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

المؤمن لا يخشى في الله لومة لائم

من آداب المؤمن ألا يخشى في الله لومة لائم، فيكون على كافة أحواله قائمًا بالعدل حتى ولو كان أحد الخصمين أباه أو أمه أو حتى نفسه، يقول ﷻ في سورة «النساء»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنَ تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي سورة «المائدة» يؤكد الله هذا المعنى وينهى المؤمنين أن يظلموا أي إنسان حتى لو كان أبغض بغيض يقول الله ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٨].

إنَّ المؤمن لا يكتم الشهادة ولا يزورها حتى ولو هُدد بقطع رأسه، وفي مثل هذا الموقف تكون الرجولة والبطولة ويخلد ذكر المرء في الدنيا ويتحقق ثوابه في الآخرة، إن الإنسان مواقف، فإما موقف شريف يقتدى به وينال ثوابه إلى يوم القيامة، وإما موقف معصية يقتدى ويحمل وزره إلى يوم القيامة، ولقد كنت أرى طالبي علم يدرسان في كلية واحدة ويتخرجان على شيخ واحد، ثم يكون أحدهما عالم خير يقف مواقف الأبرار، بينما يكون الآخر عالم سوء يسلك سيرة الفجار، وذلك لأن الأول طلب العلم لله فأمده الله بروح من عنده، بينما الثاني طلب العلم لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها أو قصر يعمره فوكله الله إلى الحطام ولم يعرف في محافل الأخيار، لقد كانت حياة سلفنا ﷺ مواقف ماجدة وقدوات خالدة.

انظر إلى رسول الله ﷺ والدم يسيل من عقبيه من حجارة السفلة والصبية الجهلة وهو يقول: «**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون الله، لا تعذبهم بذنوبهم لعلك تخرج من أصلابهم من يوحدك ويعبدك ويسجد لك**»، وبمثل هذه المواقف أحبته القلوب، والتفت من حوله عواطف المحبة، وقال له ربه في سورة «آل عمران»: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال له في سورة «القلم»: ﴿**ن وَالْقَلَمِ**

﴿وَمَا يَسْطُرُونَ ۞ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۞ وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۞ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ١- ٤].

وعلى سيرة رسول الله ﷺ سار عدد كبير من خلفاء المسلمين وعلمائهم، فرأينا في تاريخنا أجل مواقف الرجال وأعظم روائع الأعمال.

لقد كان أسلافنا ﷺ ربما تعارض أمامه دينه وقرابته فيفضل دينه على قرابته؛ لأن حب الله ورسوله عنده أغلى من كل حب وأجل من كل غال. جاء في كتب السيرة أن أبا عبيدة ﷺ قتل أباه في بدر وأنه حزن لذلك فيما بعد وخصوصًا بعد أن أرجف المشركون والمنافقون فقالوا: إن أتباع محمد بدلاً من أن يبروا آباءهم فإنهم يقتلونهم، فنزل القرآن الكريم مؤيدًا موقف أبي عبيدة وأمثاله ممن يفضلون دينهم على كل رغائب الدنيا حتى على حياتهم، قال الله تعالى في سورة «المجادلة»: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولقد ضحى كثير من المؤمنين ببيوتهم وزوجاتهم حين هاجروا وحيدين مع رسول الله ﷺ وطلقوهن حين نزل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة: ١٠].

أخي القارئ إذا مررت بحادث سيارة مثلاً فنزلت للإصلاح ووجدت أن أحد طرفي الحادث ابنك أو أبوك أو أخوك فإياك أن يؤثر هذا الاعتبار في شهادتك أو موقفك، وكن يا أخي مع الحق؛ لأن الله ﷻ أمرك أن تجعل قولك وعملك واعتقادك في مأمن من نوازع الهوى، ولو كانت الشهادة على نفسك أو الوالدين والأقربين إن مواقف العبد مكتوبة عند الله فإما هاديته به إلى جنة الله ورضوانه، وإما قاذفة به إلى غضب الله وعذابه.

ولقد كان العالم من علماء المؤمنين يرى الموت عيانًا وتكون نجاته من الموت بكلمة يقولها فيأبى ويفضل الموت في مرضاة الله على الحياة مع موقف الباطل، وهذا الموقف ليس بالهين عند الله؛ لأن السلطان لديه رغبة الأموال ولديه رهب الموت والأهوال، والإنسان بغريزته يحب المال ويحب الحياة، فإذا وقف المؤمن غير مبالٍ برغب ولا رهب صامدًا كالسيف نحو

ضريبته فهو عندئذ في أعلى منازل الشهداء مع حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وموكب شهداء الإسلام الكرام.

وقد وقف ذلك الموقف عدد من علمائنا وأئمتنا الأبرار منهم مالك بن أنس مع الخليفة الرشيد، وأبو حنيفة مع أبي جعفر، والأوزاعي مع المنصور، وسفيان الثوري مع أبي جعفر، وأبو حازم مع سليمان، والفضيل بن عياض مع الرشيد، وابن تيمية قازان سلطان التتار، والعز بن عبد السلام مع السلطان قطز، وكثيرون غير هؤلاء علَّموا الدنيا أن مواقف الرجولة مقترنة دوامًا بعظمة الإيمان.

من أحاديث الآداب

إن أكرمكم عند الله أتقاكم

من آداب المؤمن أن يزن الناس بتقواهم ويكرمهم بأعمالهم، وألا يجعل مقياس الكرامة ما يملكه العبد من جواهر وذهب ولا من جاه ومنصب ولا من نسب ونشب فيكون بذلك كمشركي قريش حين رأوا أتباع محمد ﷺ من المستضعفين ففاخروهم بفخامة ناديهم وحسن أثاثهم، قال الله تعالى في وصف أولئك من أهل البهرج: ﴿**وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا**﴾ [مريم: ٧٣]، وقد رد عليهم ربنا القاهر فوق عبادة أبلغ رد، فقال ﷻ: ﴿**وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا**﴾ [مريم: ٧٤].

ولما استنكف أقطاب الشرك من قريش عن مجالسة المؤمنين المستضعفين أمر الله رسوله ﷺ أن يهتم بهم، وألا يفرط في صحبتهم، وأعلمه أنهم أفضل ممن ركنوا إلى بهرج الدنيا، فقال ﷻ في سورة «الأنعام»: ﴿**وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾، وفي سورة «الكهف»: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف: ٢٨].

وكان مرتكز الفخر عند عرب الجاهلية هو النسب فجاء الإسلام يقلب ذلك المقياس

المتعسف ويجعل الكرامة بالتقوى، يقول ربنا جل شأنه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾.

وداس النبي ﷺ عبية الجاهلية وجعلها تحت قدميه ونادي الناس يوم الحج الأكبر: «**أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد الناس، كلهم لآدم وآدم من تراب، ألا لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**».

وبذلك أرسى رسول الله ﷺ بنيان الكرامة الإنسانية على أسس من تقوى الله وصالح العمل وجعله فوق النسب، فقال: «**مَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ**»، وبذلك المقياس السماوي محيت فوارق العرق والعنصر وتسابق الناس بمواهبهم وقدراتهم وأعمالهم فتفوق كثير من المستضعفين على الغطاريف ذوي الأنساب، وبرز إلى ساحة المجد صهيب وسلمان وبلال وابن مسعود وخباب وعداس وتخلف عن مركب الخالدين أبو لهب وأبو جهل وأبناء ربيعة وغيرهم من جهابذة الشرك وسدنة الأصنام.

جاء في الحديث المتفق عليه عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: مر رجل على رسول الله ﷺ فقال النبي لرجل عنده جالس: ما رأيك في هذا؟ فقال: رجل من أشراف الناس هذا والله حري إن خطب أن ينكح وإن شفع أن يشفع. فسكت رسول الله ﷺ. ثم مر رجل آخر فقال رسول الله ﷺ للرجل الذي عنده: «**ما رأيك في هذا؟**» فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشفع، وإن قال إن يُسمع لقوله؛ فقال رسول الله ﷺ: «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**».

وفي الحديث المتفق عليه أيضًا ما جاء عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**رُبَّ أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره**»، ومعنى الحديث أن المظهر ليس شيئًا عند الله وأنك ربما ترى رجلاً رث الهيئة لا يضيفه الناس بل يدفعونه عن أبوابهم، ولكنه مع ذلك ولي من أولياء الله لا يرد له دعاء ولا طلب، حتى إنه لو أقسم على الله وطلب منه فإن الله يعطيه طلبه ويبر بقسمة، ولقد كان

رسول ﷺ يدعو أصحابه إلى أخلاق وَمُثُلٍ عُليا ينالون بها الكرامة عند الله، وتكون لهم بركتها زلفى عنده وحسن مآب.

فمنها: أن يعظم المؤمن أوامر الله فلا يستهين به بل يجعل لها في نفسه إجلالاً واحترامًا عظيمين جاء في مسند الديلمي أن رسول ﷺ قال: «**أعز أمر الله يعزك الله**»، وروى الحاكم أن رسول الله ﷺ قال: «**من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله ينزل العبد فيه حيث أنزله من نفسه**»، وروى الدارقطني أن رسول الله ﷺ قال: «**من أراد أن يعلم ما له عند الله فلينظر ما لله عنده**».

ومن الآداب التي علَّمها رسول الله ﷺ أصحابه حب الصالحين، فتلك الآداب هي مما ينال بها العبد الكرامة عند ربه جاء في الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**المرء مع من أحب**»، ولا غرو؛ فالصديق يؤثر في صديقه وهو أيضًا يقتدي به وتشبه تصرفاته جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن تشبه بقوم فهو منهم**».

ومن الآداب التي يحبها الله ورسوله وينال العبد بها الكرامة عند الله أن يبكي العبد على خطيئته ويبتهج بالحسنة يهيئها الله إليه بحيث تظل نفسه حية الضمير لوامة تنفره من معاصي الله وتزين له الحسنات، روى الحاكم بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن سرته حسنته وساءته سيئته؛ فهو مؤمن**»، وهذه الفضيلة في المؤمن تحيي نفسه وتجملها بفضائل القناعة والسريرة الصافية والصدق والأمانة والابتعاد عن الأذى يقول النبي ﷺ: «**القناعة كنز لا يفنى**»، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**مَن أصلح سريرته أصلح الله علانيته**»، وفي سنن البيهقي: «**مَن أحب أن يحبه الله ورسوله فليصدق الحديث، وليؤد الأمانة ولا يؤذ جاره**».

إنَّ قناعة المؤمن بالحلال تسمو بنفسه وتبعث فيها الثقة بربه، ففي صحيح البخاري: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»، ويقول عليه الصلاة والسلام: «**مَن أحب أن يكون أغنى الناس؛ فليكن بما عند الله أوثق بما في يده**».

***

من أحاديث الآداب

حبُّ الحلال وبغض الحرام

من آداب المؤمن أن يروِّض نفسه على حب الحلال والتزامه، وأن يؤدبها على بغض الحرام واجتنابه، وأن يجعل أكبر همه اجتناب الكبائر والاستغفار من اللمم، وقد بشَّر رسول الله ﷺ أهل التوحيد بالجنة إذا اجتنبت الكبائر، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «النجم»: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۞ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ**﴾ [النجم: ٣١- ٣٢]، وفي كتاب الله ﷻ ما يبشر أن من لقي الله موحدًا مجتنبًا للكبائر، فإن الله ﷻ يغفر له ويدخله الجنة، يقول ربنا ﷻ في سورة «النساء»: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ [النساء: ٣١].

لكن على المؤمن أن يتذكر أن الإيغال في اللمم قد يؤدي إلى الكبائر، فمن أكثر النظر إلى النساء فتح على نفسه ذرائع الزنا، ومَن خالط المجرمين علموه الجريمة، لذلك فإن على المؤمن إذا وقع في اللمم أن يستغفر لذنبه ويئوب إلى ربه وفي الأثر: «**لا صغيرة مع الإصرار**».

وإني مورد هنا بعض ما جاء في الكتاب الكريم والسنة المطهرة عن الكبائر لنظل دوامًا على حذر منها ونفرُّ منها ومن ذرائعها - إن شاء الله- فرارنا من الوباء:

الكبائر: هي الذنوب الفاحشة التي فيها عدوان على دماء المسلمين أو حرماتهم أو أموالهم، وكذلك الذنوب المنافية للحياء المسقطة للمروءة، والعلماء في عددها وأنواعها يختلفون، لكنهم مجمعون أن الكبائر جميعها لها صفة مشتركة وهي أن فيها ظلمًا للغير وطمسًا للعقل والفطرة، قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر**» يرددها ثلاثًا؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فذكر منها ثلاثًا: «**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين**»، وكان متكئًا فجلس فقال: «**ألا وقول الزور وشهادة الزور**»، فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت.

وفي الحديث الذي رواه البخاري زاد اثنين، قال رسول الله ﷺ: «**الكبائر الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس، واليمين الغموس**»، واليمين الغموس هي التي يحلفها كاذبًا

متعمدًا يطلب بها مصلحة لنفسه.

وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**من الكبائر شتم الرجل والديه**». قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «**نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه**».

وفي الحديث المتفق عليه: «**اجتنبوا السبع الموبقات: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**»، وفي صحيح مسلم قال رسول الله ﷺ: «**لعن أكل الربا ومؤكله**».

ويلاحظ الأخ القارئ أن الكبائر كثيرة فكل ذنب لعن رسول الله ﷺ فاعله فهو من الكبائر، فإذا لعن رسول الله ﷺ كاتب الربا وشاهديه ولعن الراشي والمرتشي والرائش، فلابد أن يعتبر المؤمن هذه الأمور من الكبائر حتى يبتعد عن لعنة الله ورسوله.

لقد لعن رسول الله ﷺ من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا يرميه بالسلاح ويتدرب بذلك على الرماية، وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ لعن المخنثين من الرجال والمسترجلات من النساء، ولعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمشبهات من النساء بالرجل، وقد أصبح هذان الصنفان شائعين في كثير من الوطن العربي مع أننا في هذه الأيام بحاجة إلى بطولات هائلة لا إلى نعومة طريق خاملة، وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ لعن الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل.

وفي معجم الطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**أربعة لعنهم الله من فوق عرشه وأمنت عليهم الملائكة: عدد من بينهم الذي يحصن نفسه عن النساء ولا يتزوج لئلا يولد له**»، وفي الحديث المتفق عليه أنه عليه الصلاة والسلام لعن الواصلة والواشمة والمستوشمة، يعني التي تصل شعرها لتخدع الخاطب والتي تستوشم فتغير خلق الله لتتجمل بذلك، كما لعن المتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، والمتفلجة هي التي تبرد أسنانها ليبتعد بعضها عن بعض، والنامصة التي تأخذ من شعر حاجبها وترققه أو من شعر حاجب غيرها ليبدو قوس الحاجب من كل ناحية متسقًا.

وقد لعن رسول الله ﷺ المسلط على أمة محمد بالجبروت والمستأثر بفيئها، أي: الذي ينهب أموال خزينتها، كما لعن مَن أتى بهيمة وآذى المسلمين في طريقهم، وأكثر اللعن بغير حق، روى أبو داود -رحمه الله- أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئًا صَعِدَتْ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَهَا، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالاً، فَإِذَا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ؛ فَإِنْ كَانَ لِذَلِكَ أَهْلًا وَإِلَّا رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا**».

ولعل الإخوة القراء وقد عرفوا الآن من أنواع الكبائر ومن أنواع الملعونين عددًا كبيرًا، ومن الكبائر أن يسب الدين وأن يحرف القرآن وأن يدعو الكاتب المسلم والشاعر والمفسد بكلامه إلى الفساد والإفساد والإلحاد؛ لأن كل ذلك ظلم والله ﷻ يقول في سورة «هود»: ﴿**أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ**﴾ [هود: ١٨].

ومن الكبائر قطعية الرحم وأكل أموال الناس بالباطل وغصب حقوق العباد بالقوة؛ لأن كل هذا داخل في الظلم والظالمون ملعونون. إن من آداب المؤمن أن يبتعد عن الكبائر ويستغفر للمم ليلقى الله يوم القيامة مبتغيًا الوسيلة إليه بالتوحيد الخالص ثم بالابتعاد عن الظلم بأنواعه وعندئذ يكون مبشرًا بالأمن والسعادة ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام: ٨٢]، ومع أن الظلم فسره بعض الأشياخ بالشرك لكنه أوسع مدلولاً من ذلك، والله أعلم.

***

من أحاديث الآداب

آداب المؤمن إزاء أشراط الساعة

لقد أخبرنا نبيُّنا محمد ﷺ وهو الصادق المصدوق بما يكون بين يدي الساعة من فتن، وذلك لنظل على حذر منها، ولنعد لها توبةً وعملاً صالحًا مخلصًا لوجه الله الكريم، والحق أن بعثة رسول الله ﷺ نفسها هي من أشراط الساعة، ففي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**بعثت والساعة كهاتين**»، ويقرن بين إصبعيه السبابة والوسطى.

ولقد حذَّر النبي ﷺ من فتن ستسبق الساعة تكون كقطع الليل والمظلم ليتماسك المؤمن في وجه تلك الفتن، جاء في سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ بين يدي الساعة فتنًا كأنها قطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**». والمؤمن له أدب إزاء أشرط الساعة فهو يؤمن بكل ما أخبر به رسول الله ﷺ من أشراطها ثم هو يظل متذكرًا لأهوالها سائلاً ربه أن يجنبه تلك الأهوال يقول ربنا ﷻ في سورة «محمد»: ﴿**فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ**﴾ [محمد: ١٨].

والمؤمن إذا رأى من أشراط الساعة شيئًا حداه ذلك إلى عمق الإيمان برسالة محمد وكلامه ﷺ وإلى إعداد نفسه للصبر ومواجهة الفتن بقوة الإيمان وصدق اليقين.

وإننا لننظر في أيامنا هذه فنجد أن ما أخبر به النبي ﷺ من أشراط الساعة تحقق بأمر الله كفلق الصبح، وعلى سبيل المثل نرى في هذه الأيام أصحاب الغنى الفاحش ممن يطلق عليه لقب مليونير أكثرهم حصل أمواله بالاتجار بالحرام واستعمل الغش والاحتكار والختل وفي هذا يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَكُونَ أَسْعَدَ النَّاسِ بِالدُّنْيَا لُكَعُ ابْنُ لُكَعٍ**»، وفي صحيح البخاري «أن أعرابيًّا سأل النبي ﷺ: متى الساعة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «**إذا ضاعت الأمانة فانتظر الساعة**»، فقال: وكيف إضاعتها؟ قال: «**إذا وسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة**».

وإنك لترى في أيامنا هذه أن عددًا من يهود العالم وسدت إليهم أمور فأفسدوا في الأرض

وعاثوا في حقوق العباد، وفي مسند الربيع أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يسود كل أمة منافقوها**»، وفي سنن أبي داود يقول النبي ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى يرجع ناس من أمتي إلى أوثان يعبدونها من دون الله**»، وهو أمر نشاهده في المساجد التي فيها مقامات وقبور.

ومن أشراط الساعة التي تحققت ما جاء في الشهاب أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يكون الولد غيظًا** (أي: يغيظ أباه) **والمطر قيظًا، ويجترئ الصغير على الكبير واللئيم على الكريم**»، وهو أمر نراه اليوم في سيرة كثير من الذراري المنفلتة.

وقد ذكر النبي ﷺ أشراط أخرى نعوذ بالله من فتنتها، ففي صحيح البخاري يقول النبي ﷺ: «**من أشراط الساعة أن يرفع العلم، ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا ويكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد**»، وللبخاري أيضًا: «**لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه**».

وأخيرًا تطبق الدنيا كفرًا فلا تقوم الساعة كما جاء في صحيح مسلم: «**حتى لا يبقى على الأرض مَن يقول: الله الله**»، ويشيع في الناس غدر حتى لا يبالوا حرمة الجوار ولا الأبوة ولا الإخاء، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى يقتل الرجل جاره وأخاه وأباه**»، وفي سنن أبي داود وعد من رسول الله ﷺ بنصر مؤزر للمسلمين على اليهود، ففي مسند أحمد أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ!! هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ. إِلاَّ الْغَرْقَدَ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ**».

ومن أحاديث النبي ﷺ في أشراط الساعة وهي أحاديث تحققت قول رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد في مسنده والنسائي في سننه: «**إِنَّ بَيْنَ يَدَي السَّاعَةِ تَسْلِيمَ الْخَاصَّةِ وَفُشُوَّ التِّجَارَةِ حَتَّى تُعِينَ الْمَرْأَةُ زَوْجَهَا عَلَى التِّجَارَةِ وَقَطْعَ الأَرْحَامِ وَشَهَادَةَ الزُّورِ وَكِتْمَانَ شَهَادَةِ الْحَقِّ وَظُهُورَ الْقَلَمِ**».

ولعل كلمة (ظهور العلم) تعني ما أحدثته الأقلام المسمومة والكُتَّاب والصحفيون الكذابون في الأرض من فتنة وفساد عريض قلبا موازين الناس وعاثا في مفاهيمهم ودنسا إعلامهم وتوجههم.

ومن الأشراط التي ذكرها رسول الله ﷺ ونراها تتحقق ما جاء في قول النبي ﷺ فيما

رواه أبو داود: «**لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس بالمساجد**»، وفي صحيح البخاري: «**لا تقوم الساعة حتى يتطاول الناس في البنيان**».

وفي صحيح مسلم: «**لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض حتى يخرج الرجل بزكاة ماله فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا**».

وفي سنن الترمذي: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَتَقَارَبَ الزَّمَانُ؛ فَتَكُونُ السَّنَةُ كَالشَّهْرِ، وَالشَّهْرُ كَالْجُمُعَةِ، وَتَكُونُ الْجُمُعَةُ كَالْيَوْمِ، وَيَكُونُ الْيَوْمُ كَالسَّاعَةِ، وَتَكُونُ السَّاعَةُ كَالضَّرْمَةِ بِالنَّارِ**».

وروى البزار والطبراني أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تقوم الساعة حتى تزول الجبال عن أماكنها، وترون الأمور العظام التي لم تكونوا ترونها**».

وفي سنن الترمذي ومسند أحمد يقول رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تُكَلِّمَ السِّبَاعُ الإِنْسَ، وَحَتَّى تُكَلِّمَ الرَّجُلَ عَذَبَةُ سَوْطِهِ وَشِرَاكُ نَعْلِهِ، وَتُخْبِرَهُ فَخِذُهُ بِمَا أَحْدَثَ أَهْلُهُ مِنْ بَعْدِهِ**». وفي مسند أحمد: «**لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج**»، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: «**القتل القتل**».

أما الأشراط المباشرة التي لا ينفع معها الإيمان الجديد الذي يحدث بعدها؛ فهو ما ذكره الشيخان في صحيحيهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتْ مِنْ مَغْرِبِهَا آمَنَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا**».

وفي صحيح مسلم: «**ثَلاَثٌ إِذَا خَرَجْنَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا: طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَالدَّجَّالُ، وَدَابَّةُ الأَرْضِ**».

أسأل الله أن يحشرنا وجميع المسلمين إليه غير خزايا ولا مفتونين، وأن يتوفانا برحمته وإياكم مؤمنين مسلمين موحدين.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ۝ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَن يَخْشَاهَا ۝ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا**﴾ [النازعات: ٤٢- ٤٦].

من أحاديث الآداب

الدنيا ممر إلى الآخرة

من أجمل الآداب التي يتحلى بها المؤمن أنه يتخذ من دينه ممرًا إلى آخرته، ويعتبر نفسه في هذه الحياة عابر سبيل. إنه لا يجعل الدنيا غاية أمله ولا يرى في نعيمها إلا متاعًا قليلاً وعرضًا زائلاً، ولقد كان من دعاء رسول الله ﷺ: «**اللهم لا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي**»، وكان أعظم ما يرجوه أن يكون ربه راضيًا عنه، ففي مناجاته وقد دميت رجلاه من حجارة السفهاء بالطائف: «**إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن تنزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بالله**».

المؤمن إن أقبلت عليه الدنيا تعامل معها بحذر، وأخذ من نعيمها بقصد، واستعان بغناها على طاعة الله، وتزود منها لطريقه الطويل، فلقد حدث بعض أصحاب علي ﷺ أنه رآه في سواد الليل ماثلاً في محرابه وهو خليفة المسلمين، يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الثاكل الحزين، ويقول: يا دنيا إليك عني، باينتك ثلاثًا لا رجعة بعدها، آه من قلة الزاد، ووحشة الطريق وبعد السفر.

ولقد كان رسولنا ﷺ يخشى علينا الغنى وتبرج الدنيا لنا بحطامها الزائل، ويقول: «**وَاللهِ لاَ الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**».

وكان يوصينا عليه الصلاة والسلام أن نتذكر في رخائنا أوقات شدتنا، ونتزود في سكننا زادًا لرحيلنا ويقول: «**فليأخذ العبد من نفسه لنفسه، ومن دينه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب** (أي من عذر)، **ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار**».

ولما فتحت عليه الدنيا ورأى في بيت المال ما يمكن به أن يحقق رغباته ردع نفسه عن كل شهواتها وطوى على الجوع بطن الأديم ونفسًا طموحًا كريمًا، وكان يقول لعائشة: «**إِذَا أَرَدْتِ**

اللُّحُوقَ بِي؛ فَلْيَكْفِكِ مِنَ الدُّنْيَا كَزَادِ الرَّاكِبِ، وَإِيَّاكِ وَمُجَالَسَةَ الأَغْنِيَاءِ، وَلاَ تَسْتَخْلِقِي ثَوْبًا حَتَّى تُرَقِّعِيهِ».

وروى الترمذي أن معاوية ﷺ أرسل إليها ثمانين ألف درهم فما أمسى عندها درهم واحد، ولما قالت لها جارتها: لو اشترت لنا بدرهم لحمًا قالت -رضي الله عنها: لو كنت ذكرتني لفعلت. وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ كان يدعو ويقول: «**اللهم اجعل رزق آل محمد كفافًا**».

إنَّ في كتاب الله آيات مخيفة حقًّا يوشك من يتدبرها أن يطلق ملاذ الدنيا إلا ما يقيم أوده ويعينه على عبادته أو جهاده، هذه الآيات توحي أن من يغرق في طيبات الدنيا ويتمتع منها تمتع الأنعام بأعلافها فإن تلك المتع الدنيوية الزائلة تكون كل نصيبه وأنها تحرمه من نعيم الجنة الباقي، يقول ربنا ﷻ في سورة «الأحقاف» في حق من تبطره النعمة فيعبث فيها إسرافًا ومعصية وفسوقًا: ﴿**وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ**﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وفي سورة «محمد» ﷺ يقول الله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ**﴾ [محمد: ١٢]، وفي سورة «الحجر» يقول الله تعالى: ﴿**ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الحجر: ٣].

وقد تنبأ رسول الله ﷺ بما نحن فيه اليوم من مآكل ومشارب وزخرف وستائر وكان يتخوف علينا ذلك، جاء في سنن الترمذي أن رسول الله ﷺ كان جالسًا مع أصحابه إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو، فلما رآه رسول الله ﷺ بكى ما كان فيه من النعمة وما هو فيه اليوم ثم قال: «**كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة، وراح في حلة، ووضعت بين يديه صحفة ورفعت أخرى، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة؟**» فقالوا: يا رسول الله، نكون يومئذٍ خيرًا منا اليوم؛ لأننا نكفى المئونة ونتفرغ للعبادة، فقال ﷺ: «**بل أنتم اليوم خير منكم يومئذٍ**».

وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه كأنه يسليهم عما كانوا فيه من الفاقة: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم، وقد كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**».

وكان عمر ﷺ ربما حرم نفسه من طيبات عادية خشية أن يحرم طيبات الآخرة، جاء في «صحيح رزين» أنه ﷺ طلب عند قوم ماء ليشرب فجيء له بماء قد شيب بعسل، فقال: إنه لطيب، لكني أسمع الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال: ﴿**أَذْهَبْتُم طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا**﴾، وإني أخاف أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا، ثم رده فلم يشربه.

وذكر عند رسول الله ﷺ رجلان أحدهما كثير العبادة والآخر كثير الورع (الورع هو الزهد في حطام الدنيا وملذاتها)، فقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يعدل الورع شيء**».

وجاء في الصحيحين هذه المجموعة من الأحاديث التي تبيِّن كيف كانت عيشته عليه الصلاة والسلام، قالت عائشة -رضي الله عنها- لابن أختها عروة بن الزبير: والله يا ابن أختي إنا كنا ننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقال لها: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان التمر والماء، وما شبع آل محمد ﷺ من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض، وما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد إلا وأحدهما تمر.

وقالت رضي الله عنها: ما شبع النبي ﷺ من خبز وزيت مرتين. وقالت رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاويًا وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير، وكان بعض الشعير غليظًا قد لا يجيزه إلا بجرعة ماء، وكان يلبس الصوف، ويحتذي المخصوف (أي: الحذاء المرقع).

وفي صحيح مسلم: كان ربما ظل يتلوى ما يجد من الدقل (وهو رديء التمر ما يملأ به بطنه).

وكان أنس ﷺ يقدِّم إلى ضيوفه خبزًا مرققًا ويقول: ما أعلم أن النبي ﷺ رأى رغيفًا مرققًا ولا شاة سميطة (أي: مشوية) حتى لحق بربه، وحسبك من هوان الدنيا ومتاعها أنه عليه الصلاة والسلام أكل في شعب أبي طالب ورق الشجر حتى تقرحت أشداق أصحابه، ومات ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعًا من شعير، وأن عليًّا نزع عشرة دلاء ليهودي بعشر تمرات أقام بها صلبه.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿**وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۞ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾.

من أحاديث الآداب

عاقبـــة الظلـــم

مـن النـاس مـن إذا أوتي سـلطانًا أو قـوة لم يتـورع عـن ظلـم عبـاد الله وهضـم حقـوقهم والاعتداء على كرامتهم، يرى في ذلك إظهارًا لقدرته وفرضًا لسيطرته ووسيلة لتنمية أمواله، وتراه مع ذلك مطمئن النفس للظلم لا يلومه ضميره ولا يوقظه عقله يعود إلى بيته فيبتهج بالرزق الحرام والمتاع الزائل لا تهزه دعوة المظلوم ولا يخطر بفكره قول رسول الله ﷺ: «**اتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» مثل هذا التعس هو صاحب النفس الأمارة سيطرت عليه أوامر شهواته فأوردته موارد السفالة والهوى الرخيص وهدر حقوق الناس على صخرة قلبه القاسي.

ومن الناس مَن إذا صدر عن أي خطأ في حق عباد الله انقضت عليه نفسه اللوامة تقرعه وتنكر عليه، ثم لا يزال به ضميره الحي حتى يرده إلى الحق ردًّا شريفًا ثم لا يطمئن ضميره حتى يعتذر إلى أخيه المخطأ عليه أو يعيد إليه حقه الذي دخل ذمته.

هذا المسلم هو صاحب النفس اللوامة التي أقسم بها ربنا ﷻ، وقد جمع الله في قسمه العظيم بينها وبين القيامة وذلك لأنها لا تفتأ تذكر صاحبها بالحساب يوم القيامة يوم لا يضيع الله مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿**لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾ [القيامة: ١- ٢].

وإني لأعجب أشد العجب لإنسان يستمرئ حزن عباد الله ويستعذب عذابهم وقهرهم ويرى بعينه المجرمة أخًّا له في الإنسانية سبب له ظلم أخيه المسلم تعاسة قاتلة يعاني منها هو وعائلته وأولاده تراهم نجوم الليل على قدم رافعين إلى الله أكف الدعاء وجئير البكاء، يستمطرون الغضب على ظالمهم في جنح الله، فيرفع الله دعاءهم فوق الغمام، ثم يقول ﷻ للمظلوم: «**وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»، مصداقًا لقرآنه الكريم: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**﴾ [إبراهيم: ٤٢].

إنَّ أفتك مرض يطيح بالصحة ويهزل به الجسم هو أن ترى نفسك مظلومًا وترى ظالمك متحديًا لضعفك متشفيًّا بظلمك. ترى نفسك مسهدًا لا تطعم النوم من ألم الظلم وترى

ظالمك يلعب لاهيًا ساخرًا، وفي هذا يقول أبو الطيب:

واحتمال الأذى ورؤية جانبه غذاء تضوي به الأجسام

ويقول الشاعر:

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعينه الله لم تنم

من أجل ذلك الوقع المؤلم للظلم وبخاصة على قلوب الأباة الشرفاء بدأ ربنا فحرَّم الظلم على نفسه، ثم جعله بين عباده محرمًا؛ ففي الحديث الصحيح مما يرويه نبيُّنا ﷺ عن ربه: «**يا عبادي، إني حرَّمت الظلم على نفسي وجعلته عليكم محرمًا؛ فلا تظالموا**»، وثمة مشهد من مشاهد القيامة صوَّره رسول الله ﷺ فيه عبرة لكل مَن تحدثه نفسه بالظلم، حشر الناس في فزع شديد هو الفزع الأكبر.

ولا شكَّ أن التائه الخائف إذا مشى في النور أحس بالأنس ولو بصيصًا خافتًا لكن الفزع كل الفزع حين يكون المشي في الظلام. هنالك يكون التخبط والعثار، في ذلك الموقف الهائل يرى في ساحات القيامة قوم يخبطون في الظلام ليس لهم نور يمشون فتراهم في منظر فظيع حقًا بينما ترى للمؤمنين نورًا يسعى أمامهم وعن إيمانهم يقولون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير. أما أولئك الذين لا نور لهم يوم القيامة؛ فهم أهل الظلم، وإلى هذا أشار النبي ﷺ في الحديث الصحيح؛ إذ يقول: «**اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

ويزيد الله آلام الظالم حين يلتفت حوله فلا يرى له أي صديق من أولئك الذين كانوا يجاملونه في الدنيا خوفًا من ظلمه، يلتفت حوله فيرى أصدقاء يتعارفون من أهل الصدق والعدل ويرى نفسه ولا ناصر له ولا متعاطف، يقول ربنا ﷻ في سورة «غافر»: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ [غافر: ١٨]، وفي سورة «الحج»: ﴿**مَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ**﴾ [الحج:٧١].

لقد زال سلطان الظالم؛ فلا ظلم اليوم وجاء يوم الجزاء العادل: ﴿**الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾ [غافر: ١٧]، قد لا يرى في كل ساحات القيامة أحقر ولا أكره ولا أذل من الظالم لأن الظلم في الدنيا مقرون بتراث الكراهية وكما عاش الظالم في دنياه كريهًا فإنه يحشر في القيامة أشد ما يكون ممقوتًا كريهًا.

- في الحديث المتفق عليه: «**مَن ظلم قيد شبر من الأرض طوقه من سبع أرضين**»، يعني أن الله ﷻ يحكم أن يطوق الظالم لشبر مربع من الأرض بتراب ذلك الشبر محفورًا إلى عمق الأرضين السبع.

- وفي الصحيحين: «**إن الله ليملي للظالم** (أي: يمهله وقد يسوق إليه النعم) **حتى إذا أخذه لم يفلته**»، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية من سورة «هود»: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢]. والمفسرون لهذه الآية الكريمة لاحظوا ما سبقها وما يكتنفها من وعيد يطير بالعقول، فقد جاءت الآية الكريمة بعد قصص الهالكين أقوام نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى، حتى إذا استكمل قصص الظالمين ختم القصص بهذه الآيات المرعبة حقًّا: ﴿**ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۞ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ۞ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٠- ١٠٢]، وفي كلمة أخذ القرى وكلمة أخذه إشارة إلى القضاء الماحق الذي لا يترك لظالم أثرًا فسبحان من هذا كلامه.

- وفي الحديث المتفق عليه من حديث عبد الرحمن بن سعد الساعدي صورة منفرة للظالم وهو يحمل على عاتقه كل ما اغتصبه من مال لا حق له فيه يقول رسول الله ﷺ: «**فلا أعرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيرًا له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر**».

- وفي صحيح البخاري نصيحة للظالمين: «**من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو من شيء فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**».

- وفي صحيح مسلم ترهيب من اليمين الكاذبة التي يؤخذ بها حق مسلم: «**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة**»، فقال رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا، فقال ﷺ: «**وإن كان قضيبًا من أراك**».

- وفي أكل أموال الدولة ظلمًا قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري: إن رجالاً يتخوضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة.

- وقد كان رسول الله ﷺ يرفض أن يصلي على ميت ينوء في ذمته بدين؛ لأن الدين حق وعلى المؤمن أن يتطهر من ديونه قبل أن يوافيه أجله.

من أحاديث الآداب

التفكُّر والتدبُّر

إنَّ من آداب المسلم أن يتحلى بالتدبُّر والتفكُّر، وألا يصدر في أحكامه عن غوغائية يحكمها الهوى، أو سطحية تنقصها الأناة والحكمة، لقد كان رسول الله ﷺ طويل التفكير عميق التأمل حتى لقد كانت عبادته في حراء تفكيرًا باحثًا متأملاً في ملكوت السموات والأرض، وجاء دينه القويم حثًّا على التفكر في خلق الله وعلى التدبر لكلام الله، بل إنه لما رأى سيطرة الهوى على المشركين وأسلوب الغوغائية في المعاندين دعاهم إلى أمر واحد ألا وهو أن يخلوا إلى أنفسهم أو يجتمعوا اجتماعات صغيرة يسهل فيها التفكر ثم يتفكروا في دعوة محمد وكلام الله مؤكدًا لهم أن مجرد التفكر المستنير والتدبر المتأني والتأمل العميق سيوصلهم إلى الحقيقة ويهديهم إلى الإيمان، وفي هذا يقول ربنا ﷻ في سورة «سبأ»: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ**﴾ [سبأ: ٤٦].

والجميل في الإسلام أنه دعا إلى التفكر الحر والتدبر المتأمل في وقت كانت الكنيسة فيه تعتبر التفكر الحر في الدين جريمة، وقد طار صواب الكنيسة في مطلع النهضة الحديثة حين انبرى بعض المصلحين فدعوا إلى تفسير الإنجيل تفسيرًا حضاريًّا عصريًّا.

وحين تساءل بعض المصلحين عن أمور ابتدعها البابوات كبيع صكوك الغفران وعبادة الصور وبلغ من حنق البابوات أن سموا أقطاب الإصلاح الديني هراطقة، أي: كفارًا، وأنشئوا لهم محاكم سموها محاكم التفتيش قتلت الآلاف منهم، واستحلت تمزيق أجسادهم وإزهاق أرواحهم.

لقد دعانا الحق ﷻ أن نقرأ قرآننا في تدبر عميق وأنكر على من يقرأ القرآن قراءة لا تتجاوز الحلوق، يقول الله تعالى في سورة «محمد»: ﴿**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول في سورة «ص»: ﴿**كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾ [ص: ٢٩]، وفي سورة «البقرة» كرر الله ﷻ مرتين قوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٩].

ولا غرو؛ فالإسلام يجمل في قلبك وعينك كلما تدبرت محاسنه والقرآن يتجلى لك إعجازه كلما تدبرت لفظه ومعناه.

وحسبك أن كتاب الله يدعوك لتتخذ من الكون كتابًا تقرأ فيه دروس الإيمان قال تعالى في سورة «يونس»: ﴿**قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ**﴾ [يونس: ١٠١]، وما أحلى قوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿**أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۞ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأعراف: ١٨٤- ١٨٥].

جاء في الحديث الذي رواه عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**تفكروا في آلاء الله** (أي: في آيات قدرته ومواهب نعمه)، **ولا تفكروا في الله** (أي: في ذاته العلية).

وقال أبو الدرداء ﷺ: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة، وذلك لأن الرجل قد يقوم ليلة قيامًا آليًّا يتركع ويسجد دون أن يفكر ذلك التفكير الواعي الذي يجعله يقدر الله حق قدره ويخشاه حق خشيته».

ومن كلام وهب بن منبه ﷺ: إذا أطال المرء الفكر فهم، وإذا فهم علم، وإذا علم عمل. وقال بشر الحافي رحمه الله: لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوه.

وفي تفسير قوله تعالى في سورة «الأعراف»: ﴿**سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ**﴾ [الأعراف: ١٤٦]. يقول الأشياخ: إن المرء إذا تكبر على خلق الله وتطاول عليهم بغير حق واستشعر الغطرسة والعجب فإن الله ﷻ يقفل قلبه عن التفكر في آيات الله ومخلوقاته ليظل مغرورًا مشغولاً بنفسه غافلاً عن بواعث الإيمان والعمل الصالح.

إنَّ دين الإسلام يعتبر التفكر في بدائع صنع الله تربية إيمانية عظيمة. نظر أحدهم مرة إلى عينيه في المرآة فلفت نظره أن العين تطرف (أي: ترمش) بمعدل مرة في كل بضع ثوانٍ، وكأنه استهان بحركة العين هذه، وسأل أحد أطباء العيون عن هذه الحركة المستمرة من العين؛ فقال له الطبيب: إنَّ هذه الحركة عملية صيانة مستمرة للعين تنظف العين في كلِّ بضع ثوانٍ وتغسلها لتظل نقية من الغبار والأوضار، فاسأل الله أن يحفظ عليك جفنيك وحركتهما التي

تعمل عمل مساحة السيارة في المطر الشديد.

ومن ثَمَّ؛ فإن من أعظم ميادين الاعتبار هو جسمك الذي تتنوع فيه المفاصل والأجهزة وبخاصة أعصاب السمع والبصر والفؤاد ومراكز الدماغ، وفي هذا يقول ربنا -جل وعلا: ﴿**وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ**﴾ [الذاريات: ٢٠- ٢١].

ولله ذلك الشمول المعجز في قوله ﷻ في سورة «البقرة»: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: ١٦٤].

ألا ما أروع هذه الكون معرضًا لدلائل القدرة ومسرحًا لأدلة الوحدانية:

ففي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

ولما للفكر من أهمية في غرس الإيمان وتثبيته يقول النبي ﷺ فيما رواه الترمذي وابن ماجه عن ابن عباس -رضي الله عنهما: «**فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد**»، وذلك لأن الفقيه يصدر عن تفكر في عبادته، في حين قد يتعبد المتعبد آليًّا بعادته.

لقد علَّمنا نبيُّنا ﷺ أن نميز بين الإثم والبر وبين الحلال والحرام بمعيار الفكر، ولما جاء أحد الصحابة يسأله ﷺ عن البر والإثم أفاد السائل أن يعرض الأمر على الفكر السليم المستقيم، فإن رآه بعد التفكر مطمئنًا للنفس والقلب فهو بر، وإن رآه مما تنكره الأمة ولا يطمئن إليه الفكر فذلك هو الإثم.

نسأل أن يجعل صمتنا فكرًا، وأن يجعل نطقًا شكرًا.

***

من أحاديث الآداب

محاسبة النفس

من آداب المؤمن أنه يعرف قدر نفسه حق المعرفة فلا هو يحقرها ويهمل أمرها ويتبعها هواها ولا هو يطلق جماحها لدواعي الغطرسة ومزالق الردى وإغراء الشهوات. المؤمن يدين نفسه ويشتد في محاسبتها، أما غير المؤمن فتراه غبيًا. عاجزًا. يرخي لنفسه عنان الهوى فتسيطر عليه وتجره إلى الهاوية، وهو في أثناء ذلك يتمنى على الله الأماني.

المؤمن يشتري نفسه من العذاب بعرض من الشهوات ورخيص الهوى فيرديها ويردى بهلاكها، سلّم الفضيل بن عياض على هارون الرشيد وإذا يد الخليفة ناعمة بضة طرية فقال الفضيل: ما أجملها يدًا إذا سلمت من عذاب الله ولم تلفحها نار جهنم.

المؤمن يري نفسه بمقياس مادتها ونعومتها وترفها جيفة حيوانية قذرة، لكنه يراها بمقياس إيمانها وصلاحها وتقواها جوهرة إلهية غالية، أما العاجز الكافر فيذوق لنفسه طعمًا من الإعجاب والعجب، وطعم النفس هو طعم أهوائها وثرواتها فتزين له دروب الهوى والضلال وترديه قتيلاً في بهرج الزينة والمال، ثم إذا كل ذلك هشيم تذروه الرياح، ولا يخلف إلى الحسرة والجراح. هنالك يرن في أذنيه هاتف يكاد يصمها: ﴿**الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾ [الكهف: ٦٤].

المؤمن يعكف على تربية نفسه وسوس غرائزها وترويض شماسها بالعلم والعبادة وصحبة الأخيار، فتتحول نفسه روحًا ترقى في مدارج الإسلام والإيمان والإحسان حتى تسمو إلى مقامات الملأ الأعلى، وأما الكافر الجاهل فيعكف على تربية جسده حتى يكتنز لحمًا ويطبق شحمًا إذا كل ذلك نهب للدود والتراب، ومن بعد هذا مكابدة للبعث والحساب كل هذه المعاني الراقية جمعتها البلاغة النبوية في سطر واحد في الحديث الشريف الذي رواه الترمذي وحسنه؛ إذ يقول رسول الله ﷺ: «**الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني**».

أخي إذا أردت أن تعتق نفسك من عذاب الله فجاهدها جهادًا كبيرًا، واجعل أسوتك في مجاهدتك رسول الله ﷺ ففيه الأسوة الحسنة كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا. وإذا وجدت نفسك أمارة بالسوء فأدبها وعاقبها عقابًا يناسب سوءها ولتكن عقوبتك لها وسطًا قوامًا لا شطط فيها ولا غلواء، وإذا رأيت منها ميلاً إلى الفاحشة فابتعد بها عن بيئات النساء، إذا رأيت فيها شهوة البطن جامحة فاقدعها بالصوم والاعتدال، وإذا آنست منها حبًّا للسحت فتفقد كسبك واكتف بحلال الله عن حرام واستعن بفضله عمن سواه.

حتى إذا تعودت نفسك الحلال أعانها ربها على هجر الحرام، فإذا هي ترتقي في مدارج السلوك من أمارة إلى لوامة، تلومك على الذنوب، وتذكرك بحساب يوم القيامة، ولأمر ما قرن الله قسمه بيوم القيامة فأقسم معه بالنفس اللوامة؛ لأنها دوامًا تذكرك بيوم القيامة: ﴿**لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۞ وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ۞ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ۞ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ**﴾ [القيامة: ١- ٤]، وباستمرار رياضتها تتحول إلى نفس مطمئنة راضية عن الله مرضية عنده، وعندئذ تبلغ أعلى مراتب الدين ألا وهي مرتبة الإحسان حين تتقي الله حيثما كنت، وتراه معك أينما كنت، فتعبده كأنك تراه، وتؤمن أنه يراك وإن لم تكن تراه.

إنَّ من أدب المؤمن إزاء نفسه أن يحمل نفسه على ما تكره، ويعودها على خوض الصعاب والصبر عن الشهوات، قال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره**»، وفي رواية لمسلم: «**حفت...**»، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يا أبا ذر، لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة الشريك، فيعلم من أين مطعمه؟ ومن أين مشربه؟ ومن أين ملبسه؟ أمن حِلٍّ ذلك أم من حرام**» (رواه الديلمي).

وفي الحديث الشريف الذي رواه الترمذي أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن أكثر ما يدخل النار، فقال: «**الفم والفرج**» يعني بذلك شهوات النفس من المطاعم والشهوات.

وقد دعا رسول الله ﷺ بالتعاسة على من يربط رضاءه وغضبه بملاذ الدنيا فقال: «**تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط**»، وقد كان أمير المؤمنين عمر ﷺ أقوى الناس في محاسبة نفسه، وكان عليٌّ ﷺ أقدر الناس على قهر شهواته، ولقد رآه بعض

أصحابه في جنح ليلة باردة ماثلاً في محرابه يتململ تململ السليم (الملدوغ)، ويبكي بكاء الحزين، وقد بللت دموعه لحيته وهو يخاطب شهوات الدنيا يقول: «إليك عني غري غيري، باينتك ثلاثًا لا رجعة بعدها، آه من قلة الزاد ووحشة الطريق وبعد السفر». وقال عمر ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا».

إنَّ المؤمن عبد الله أوثقه القرآن عن كل معصية وحال الإسلام بينه وبين كل منقصة وجمله دينه بكل فضيلة وهو يعلم أن الله مؤاخذه وسائله عن سمعه وبصره وجوارحه، وهو مؤمن واثق أن كل أولئك كان عنه مسئولاً، والمؤمن في كل أحواله على استعداد تام للقاء ربه؛ لأنه يتوقع لقاءه كل لحظة، فلا يزال يهتف به هاتف الله: ﴿**فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ**﴾ [الحجر: ٩٨]، ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾ [الحجر: ٩٩].

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

التخوف من الذنوب

تجتمع في المؤمن طائفة من صفات الخير وسمات الإيمان تجعله في الناس محببا القلوب وتحول بينه وبين العيوب، ولعل أهم تلك الصفات ثلاث هن من أجمل الشمائل:

أولاها: التخوف من الذنوب.

وثانيها: جمال السمات وحلاوة الطريقة.

وثالثها: سمو الذوق في كل عمل وقول.

وقد قلبت كتب السنة المطهرة فرأيت فيها أجمل الحديث عن فضائل النفس من عفاف وذوق ومروءة ومسارعة إلى الخير، فأحببت أن أسجل هنا بعض كلام النبي الكريم حول أدب النفس وذوقها وسمو أهدافها ومروءتها، لعل الله ينفعنا بها والإخوة القارئين ويجعلنا وإياهم ممن طاب ذوقًا ونفسًا وحياةً وأدبًا، يقول النبي ﷺ: «**مَن خاف أدلج، ومَن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله هي الجنة**».

وفي حديث أنس أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت فقال له: «**كيف تجدك؟**» فقال: أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي، فسر النبي ﷺ وقال للشاب: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف**».

وفي صحيح مسلم من حديث حنظلة بن الربيع أحد كُتَّاب النبي ﷺ قال: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ الله!! مَا تَقُولُ؟! قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ، فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَالله إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ الله ﷺ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا

كَثِيرًا، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً**».

ومن حديث مطول للترمذي أن رسول الله ﷺ كان إذا ذهب ثُلثا الليل قام فقال: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ، اذْكُرُوا اللهَ، اذْكُرُوا اللهَ، جَاءَتْ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ**».

وفي سنن الترمذي أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يعلِّم أصحابه التعامُّل مع الدنيا بجمال نفس وإجمال في الطلب، فيقول: «**مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنْ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ**».

وما أقبل عبد على الله بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تنقاد إليه بالود والرحمة، وكان الله بكل خير إليه أسرع، ويقول الله تعالى فيما يرويه عن نبيِّه ﷺ: «**يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك وأسد فقرك**».

وقد دعا رسول الله ﷺ أهل القرآن أن يقرءوه قراءة فقه وتدبر لتظهر حكمته على ألسنتهم وتغرس أخلاقه في قلوبهم، أما مجرد الهذرمة بقراءته دون تفاعل مع مقاصده ومراميه وأخلاقه فتلك قد لا تخدم في بناء الشخصية القرآنية التي تجعل المؤمن قرآنيًّا في أسلوبه وبلاغته، وفي أخلاقه ونزاهته، يقول ابن مسعود رضي الله عنه فيما رواه عنه الإمام مالك -رحمه الله: «**سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ قَلِيلٌ فُقَهَاؤُهُ كَثِيرٌ قُرَّاؤُهُ، يُحْفَظُ فِيهِ حُرُوفُ الْقُرْآنِ، وَتُضَيَّعُ حُدُودُهُ، كَثِيرٌ مَنْ يَسْأَلُ، قَلِيلٌ مَنْ يُعْطِي، يُطِيلُونَ فِيهِ الْخُطْبَةَ، وَيَقْصُرُونَ الصَّلَاةَ، يُبَدُّونَ فِيهِ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلَ أَعْمَالِهِمْ**».

ومما يرقق القلب ويبعث فيه مخافة الله تذكره أبدًا بالموت ليعلم أن قصة الحياة لا بدَّ أن يسدل ستارها على هذه الخاتمة اليقينية، وأن على العبد أن يظل متجدد الصلة بالله مستعدًا للقاء الكريم حتى الدقيقة التي يأتيه فيها اليقين، واليقين هو الموت، وفي مسند الدارمي أن لقمان قال لابنه: يا بني، إنك استدبرت الدنيا منذ ولدت، واستقبلت الآخرة منذ كنت، وإن

دارًا تسير إليها أقرب إليك من دار سترحل عنها».

وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول لأصحابه: «**لاَ تَنْظُرُوا فِي ذُنُوبِ النَّاسِ كَأَنَّكُمْ أَرْبَابٌ، وَانْظُرُوا فِي ذُنُوبِكُمْ كَأَنَّكُمْ عَبِيدٌ؛ فَإِنَّمَا النَّاسُ مُبْتَلًى وَمُعَافًى، فَارْحَمُوا أَهْلَ الْبَلاَءِ، وَاحْمَدُوا اللهَ عَلَى الْعَافِيَةِ**».

ومما يأخذ بالقلب إلى طريق الحكمة أن تكون عبادته على علم؛ لأنه إنما يخشى الله من عباده العلماء؛ لأن العالم يطلع من ملكوت السموات والأرض على ما يزيد يقينه، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾ [الأنعام: ٧٥]، وفي الحديث الذي رواه عمر بن عبد العزيز -رحمه الله: «من تعبد بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح».

ومن أحاديث الرقائق الجميلة حديث رواه أحمد -رحمه الله- في مسنده: «يبعد العبد في عبادته عن أن يمن بها ويستكثر، يقول النبي ﷺ: «**لو أن رجلاً يخر على وجهه** (أي: ساجدًا لله) **من يوم ولد إلى يوم يموت في مرضاة لحقر ذلك العمل يوم القيامة**».

ومن الفضائل التي أوصى بها رسول الله ﷺ أصحابه لترق قلوبهم وتسمو نحوه مسيرتهم خشية الله في السر والعلانية وكلمة العدل في الرضا والغضب والاعتدال في الفقر والغنى، وأن يكون العبد على كافة أحواله مع المعروف والإحسان فيصل من قطعه ويعطي من حرمه ويعفو عمن ظلمه، وأن يكون مع الله على جميع تقلباته، فيجعل صمته تفكيرًا في آيات الله ونطقه ذكرًا لرب العزة وأمرًا بكل معروف ونهيًا عن كل منكر. وفي سنن الترمذي طائفة من الأحاديث التي تدعو إلى جمال النفس والطريقة.

وخلاصة هذه الأحاديث أن ينظر في أمور دينه إلى من هو فوقه لتطمح نفسه إلى مدارج السالكين، وينظر في أمور دنياه إلى مَن هو دونه لتعظم نعم الله في قلبه وعينيه، وأن يتحلى بما يحفظه من السقطات، فقد قال ﷺ لعقبة بن عامر: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ**»، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «**مَنْ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنْ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ وَالسَّلاَمُ عَلَيْكَ**».

وفي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة مَن تركه الناس اتقاء شره**»، وفي رواية: «**اتقاء فُحشه**».

وفي مسند أحمد أن رسول الله ﷺ دعا إلى المحبة والألفة وحسن العشرة بين المؤمنين فقال: «**المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف**».

من أحاديث الآداب

تحمُّل الأذى في الله

حين يرتضي المؤمن الإسلام دينًا، يسلم وجهه لله، ويهب حياته ونفسه له، ويقول ما أمر الله نبينا أن يقول: ﴿**إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ لاَ شَرِيكَ لَهُ**﴾، ثم هو بعدئذٍ لا يرهب الشدائد في الله، ومن ثَمَّ لا تأخذه في الحَق لومة لائم.

إنَّ من أعظم آداب المؤمن أنه يتحمل الإيذاء والعذاب في سبيل الله ولا يثنيه ذلك عن دينه العظيم مهما اشتد الخطب وعظم البلاء، بل إن المؤمن ليستعذب العذاب مادام فيه رضاء لله، وعز ومنعة لدينه، قال المقداد بن الأسود ﷺ: «والله لقد بعث رسول الله ﷺ على أشد حال بعث عليها نبي من الأنبياء في فترة وجاهلية ما يرى الناس فيها دينًا أفضل من عبادة الأوثان».

إنَّ على كل مسلم أن يقوم إزاء إسلامه بأربعة أمور: أن يعلم أمور دينه حتى لا يعبد الله على جهل، ولا يكون عمله تخبطًا واعتسافًا، وأن يتعلم قبل أن يعبده بقول أو عمل؛ لأن من عبد الله على جهل فلربما عصاه، وهو يعتقد أنه يعبده، يقول الله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ**﴾ (يعني: تعلم حقيقة التوحيد الخالص) ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ فانظر كيف رتب الأمر، فقال: ﴿**فَاعْلَمْ**﴾ ثم ﴿**اسْتَغْفِرْ**﴾ بادئًا بالعلم قبل القول والعمل)، ولا غرو فالإسلام أساسه العلم وأول آيات قرآنه: ﴿**اقرأ**﴾.

ومن ثم فالمؤمن يبدأ بتعلم أوامر الدين ويثني بالعبادة وسلوك الصالحين ويثلث بعدئذ بالتزام الحق والدعوة إليه، ولو كان في ذلك قطع الوتين، وأخيرًا يوطن نفسه على الصبر ولو أحاط به كيد الكافرين.

جاء في الحديث الذي رواه الطبراني عن منيب الأزدي أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ في

الجاهلية وهو يقول: «**يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»، فمنهم من ثقل عليه، ومنهم من حثا عليه ترابًا، ومنهم من سبه حتى انتصف النهار أقبلت جارية وضيئة الوجه تحمل قدحًا ومنديلاً فناولته فغسل وجهه ويديه، وفي رواية: فشرب وقال لها: «**يا بنية، خمري عليك نحرك** (يعني: غطي مقدمة عنقك)، **ولا تخافي على أبيك غيلة ولا ذلة**». فقلت: من هذه؟ قالوا: هذه ابنته زينب. نعم والله ليس على أبيها غيلة ولا ذلة؛ لأن الإهانة في الله عز، والأذى فيه فخر وشرف.

قرأنا أن قريشًا أرادت قتل رسول الله ﷺ فتطوع من بينهم عقبة بن أبي معيط فجاءه وهو يصلي عند الكعبة، فخنقه بردائه حتى سقط ﷺ على ركبته من الخنق، فركض أبو بكر ﷺ يخلصه من الكافر الفاسق ويقول: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ**﴾ [غافر: ٢٨].

ومن المعروف أن إسلام حمزة كان ردًّا على سفالة أبي جهل حين تعمد إهانة رسول الله ﷺ على ملأ من الناس، فما ترك سبة ألا أفرغها حتى تحدَّث الناس بذلك النداء البشع، فهاج حمزة حين عاد من قنصه وعلم بتفاصيل الإهانات، وعمد إلى أبي جهل فضربه بالقوس بين أذنيه وهو يقول له: أتهينه هو أشرف منك، خُذْ هذه بالقوس وستأتيك الثانية بالسيف؟! وأبو جهل يتذلل، ويقول له: يا أبا عمارة، لقد سفه آلهتنا، فقال له حمزة: أشهد أنه لرسول الله رغم أنفك، فما كان يوم أشد على الكافر وقومه من ذلك اليوم، ولما نزل قوله تعالى: ﴿**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ**﴾ أمر ولديه عتبة وعتيبة أن يطلقا بنتي رسول الله ﷺ أم كلثوم ورقية، وقالت لهما أمهما حمالة الحطب أخت أبي سفيان: طلقاهما فهما صائبتان، ولم يكتف عتيبة بطلاق أم كلثوم، بل جاء إلى أبيها فشق قميصه وتهدده، وأعلمه أنه مسافر إلى الشام، وأنه سيفعل أكثر من ذلك إذا رجع، فدعا عليه رسول الله ﷺ، فسلَّط الله عليه أسدًا افترسه من بين كل القافلة.

أما أصحابه ﷺ؛ فقد كان صبرهم على الأذى حديث الكتب ومعجزة الأخلاق ومفخرة المثل العليا، وحسب المؤمن أن يتخذ قدوته في الشدائد بلالاً وعمارًا وياسرًا وسمية أم عمار وسلمان وصهيبًا وأبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وأبا جندل وأبا بصير والوليد بن الوليد ومصعب بن عمير، وغيرهم.

لقد تحمَّل هؤلاء الأذى والقتل والجوع والبرد، وحسبك أن تعلم أن حمزة ومصعب بن

عمير -رضي الله عنهما- لم يجد الصحابة لهما كفنين، فغطوا سائر جسديهما ببعض النباتات، وأن بعض أصحاب رسول الله ﷺ صلوا جالسين حتى لا تظهر عوراتهم إذا وقفوا، وأن رسول الله ﷺ نفسه استعار ثوبًا من شرحبيل بن حسنة؛ ليتمكن من الصلاة، فتخلف شرحبيل عن الصلاة لعريه.

وإن المرء ليعجب كيف كان أولئك الجياع العراة يملكون تلك الطاقات الجبارة التي غرست مهابتهم في صدور الصناديد، وجعلتهم ينتصرون بالرعب مرغمين أنف الجوع وأنف البرد؟!

والجواب أن صدق الإيمان حين تشربه قلوب المؤمنين يجعل المؤمن عبدًا ربانيًّا ينظر ببصر الله، ويسمع بسمعه، ويبطش بيده، ويمشي برجله، يسأل ربه فيعطيه، ويستعين الله فيعينه، ويقسم على الله فيبره، ويدعوه فلا يرد دعوته، ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وإلى القارئ المؤمن هذه الحادثة التي بطلها صحابي لم يجد ثوبًا يلبسه، فلبس مرطًا رقيقًا لامرأته في ليلة ذات ريح باردة عاصفة، حدَّث حذيفة بن اليمان ﷺ قال: رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وأبو سفيان ومن معه فوقنا، ويهود بني قريظة أسفل منا نخافهم على أزواجنا وذرياتنا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمةً وبردًا وريحًا منها في أصوات ريحها مثل الصواعق، فطفق المنافقون يستأذنون رسول الله ﷺ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، وهم يتسللون، حتى بقينا نحوًا من ثلاثمائة رجل؛ إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً، حتى أتى عليَّ وما عليَّ ما يحميني من العدو ولا من البرد، إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي وكنت جاثيًا عليهما، حتى لا تضربهما الريح، فلما اقترب رسول الله ﷺ تقاصرت إلى الأرض خجلاً منه، فقال: «**مَنْ؟**» قلت: حذيفة، فقال: «**يا حذيفة، سيكون في القوم خبر هذه الليلة، فائتني بخبر القوم**». قالها وما في الأرض أشد مني بردًا وجوعًا وفزعًا، فوقفت وخرجت فقال ﷺ: «**اللهم احفظ حذيفة من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته، واجعله رفيقي يوم القيامة**». فوالله ما أتم دعاءه حتى زال عني كل فزع وكل برد، ثم قال لي: «**يا حذيفة، لا تحدثن شيئًا في القوم حتى تأتيني**».

ومضيت حتى دنوت من عسكر القوم، وإذا نار توقد ورجل أسمر ضخم يدفئ يديه على النار، ويمسح بهما خاصرته، ولم أكن أعرف أبا سفيان، فهممت أن أرميه بسهم، فتذكرت أمر رسول الله ﷺ، فكففت وإذا الرجل يقول: الرحيل الرحيل، وكان أقرب القوم إليَّ بنو عامر، وإذا هم يقولون: الرحيل الرحيل، وإني لأسمع الحجارة تعصف بها الريح فتضرب أمتعتهم، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملته يصلي، فأحسست بالبرد، فأرسل عليَّ شملته، وبشَّرته أن القوم أخذوا يرحلون، ونزل قوله تعالى في سورة «الأحزاب»: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا**﴾.

اللهم أمددنا منك بعزيمة على الرشد والإيمان نعيد بها سيرة حذيفة بن اليمان ﷺ.

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

فضل النية الصادقة

في كتاب الله ﷻ آية كريمة لا تتجاوز ألفاظها كلمات، وددت لو ينقشها كل إنسان في شغاف ضميره ويجعلها ورده آناء ليله ونهاره. هذه الآية استوقفت الأشياخ -رحمهم الله- فلما وقفوا عندها وجدوها منارًا لسفينة الحياة تضيء لها شواطئ الأمن والإيمان ومرفأ السعادة والسلام إنها قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

لقد لفت أنظار المفسرين أن أسلوب الآية يسمي في علم البلاغة أسلوب حصر أو قصر، ويصبح بهذا معنى الآية أن الله ﷻ خلق الجن والإنس لعبادته فقط ولم يخلقهم لأي شيء آخر. وتساءل العلماء رحمهم الله كيف خلق الله الخلق لعبادته فقط مع أن هنالك أعمالاً كثيرة يمارسها الناس غير العبادة؟

إنَّ الناس مثلاً يأكلون ويشربون ويمشون في أطراف الأرض ويزرعون ويصنعون ويستمتعون بملذات الحياة فيتزوجون وينجبون ويربون ذرياتهم؛ فيكف نوفق بين هذه الحقائق وبين أسلوب الحصر في الآية الكريمة ذلك الأسلوب الذي يعلن أن حكمة الخلق هي العبادة فقط؟

ثم كان الجواب هو ما فتح الله عليهم به: أن الآية الكريمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها وأن كل ما يمارسه الخلق من أكل وشرب ومشي وزراعة وصناعة وتجارة كل هذه ممكن أن تحولها النيات الكريمة إلى عبادات، فالله ﷻ هو من وراء القصد فلربما أثاب العبد حتى وهو يمارس شهوته. قال رسول الله ﷺ: «**وفي بضع أحدكم صدقة**»، ومعنى هذا أن المؤمن قد يأتي شهوته ويستمتع بأجمل لذته فيكتب الله له تلك الملذات صدقة حين اكتنفتها النوايا النبيلة وقصد بها الاكتفاء بالحلال عن الحرام، وما يتبع ذلك من إنجاب الذرية الطيبة التي تعبد الله وتتبع سلفها بإيمان.

وبهذا المفهوم يتسع مدلول العبادة حتى تشمل حياة المؤمن كلها عبادة بحيث تكون

صلاته ونسكه ومحياه ومماته عبادة كما تكون تجارته وصناعته وزراعته عبادة وحتى تصبح ملذاته من طعامه وشرابه وشهوته عبادة ويتحقق بذلك المعنى الإلهي العظيم للآية الكريمة: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولـيعلم العلـماء أن أسـلوب الحصر الـذي فيهـا هـو الأسـلوب المقصـود وأن لله الحجـة البالغـة، وتمـت كلمـة ربـك صـدقًا وعـدلاً لا مبـدل لكلماتـه وهـو سـميع العلـيم. إن النوايـا المخلصة لوجه الله تحول الشـهوات إلى عبـادة بينما النوايـا الخبيثـة الغاشـة تحـول الحسـنات إلى سيئات فرب قائل: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) تكتب عليه العبارة الكريمة سيئة مع أنهـا أفضل كلمة على وجه الأرض، ورب إنسان يسب المسلمين يكتب له السباب حسنة. يقـول الله ﷻ: ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْـهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾.

ولقـد قرأنـا في السـيرة أن محمـد بـن مسـلمة حـين كلفـه رسـول الله ﷺ بقتـل كعـب بـن الأشرف ركبه همٌّ شديد، فلم يأكل ولم يشرب بضعة أيام، فسأله رسول الله ﷺ عن سبب همه ونحوله، فقال: يا رسول الله، فكرت في الأمـر فوجدت أنـه لا يـتم إلا إذا قلـت فيـك، يعنـي اغتبتك وذممت أعمالك، فقال له رسول الله ﷺ: «**قل فيَّ ما تشاء**»، وبهذا أذن له رسول الله ﷺ بذمـه عنـد عـدو الله كعـب بـن الأشرف؛ لأن النيـة الصـادقة المخلصـة تحـول ذلـك الـذم إلى حسنات في حين أن نوايا المنافقين الخبيثة جعلـت كلمـة التوحيـد العظيمـة تكتـب عليهم مـن آثامهم.

ومن هذا المفهوم يكون المؤمن بإذن الله عابدًا لله مثابًا على عبادته حتى وهـو يأكـل لذيـذ الطعام ويشرب سائغ الشراب ويتمتع بالحلال الطيب من الشهوة، وفي هذا يقـول رسـول الله ﷺ فيما رواه الشيخان: «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ، وَإِنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَى؛ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**».

ولقد ذكر رسول الله ﷺ قومًا من ضعفاء المسلمين لم ينفروا إلى غزوة فذكر عليه الصلاة

والسلام أن نياتهم الكريمة الخالصة لوجه الله كتب الله بها ثواب المجاهدين الذين قطعوا مئات الأميال، فقال رسول الله ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**إن أقوامًا خلفنا بالمدينة ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا حبسهم العذر**»، والشعب هو الطريق في الجبل.

وفي صحيح البخاري أن رجلاً من الأنصار اسمه يزيد بن الأخنس أخرج دنانير يتصدق بها فوضعها عند رجل بالمسجد ليعطيها لمن يحتاجها فأعطاها الرجل إلى ابن الأنصاري المتصدق واسمه معن ولعله رآه محتاجًا فرد معن الدنانير إلى أبيه فأخذها إلى رسول الله ﷺ وأخبره بقصتها فقال عليه الصلاة والسلام: لك ما نويت يا يزيد، ولك ما أخذت يا معن. وبذلك كتب الأجر ليزيد بنيته مع أن الدنانير عادت إلى ولده.

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى أعمالكم**».

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال من حديث عبد الله بن عباس: «**مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً**».

وقد جاء في الصحيحين حديث الرجال الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة، فما فرج الله كربتهم إلا ببركة أعمال صالحة عملوها كانت نواياهم فيها مخلصة لوجه الله، وفي الحديث المتفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لسعد: «**إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي امْرَأَتِكَ**».

وهذا يعني أن المؤمن بنواياه المباركة يكتب له ربه حسنات حتى في إنفاقه على نفسه وعلى زوجته وعياله؛ ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ المسلم إذا أنفق على أهله نفقة وهو يحتسبها** (أي: ينوي إخلاصها لوجه الله) **كانت له صدقة**».

وقد روى الشيخان حديث الرجل الذي أراد أن يتصدق صدقة مخلصة لوجه الله؛ فكان يخرج بليل لكي لا يراه أحد وهو يتصدق فكان أن وضع الصدقة أول ليلة في يد سارق فأصبح الناس يتحدثون تصدق الليلة على سارق، وفي الليلة الثانية وضع صدقته في يد زانية

فأصبح الناس يتحدثون تصدق على زانية، وفي الليلة الثالثة وضع الصدقة في يد غني فأصبح الناس يتحدثون تصدق الليلة على غني. لكن ربنا ﷻ تقبل منه صدقاته؛ لأن نية الرجل كانت احتساب الصدقة ولوجه الله.

وعلى الجملة؛ فإن الإسلام هو دين الحقائق وليس دين المظاهر، والقبول عند الله لا يتعلق بالتزويق والدعايات وزخرف العمل والقول لكن الله ﷻ إنما يتقبل من المتقين الذين يعتصمون بالله ويخلصون دينهم له.

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

التواصي بالحـــــقِّ

لا يكفي من المؤمن أن يقيم الحق في نفسه ثم يقول بعد ذلك: ما عليَّ من غيري ولا دخل لي فيهم، بل لا بدَّ للمجتمع أن يتواصى أصحابه بالتزام الحق ونبذ الظلم والباطل، بمعنى أن المجتمع الإسلامي مطالب أن يكون مجتمعًا فاضلاً وضيئًا لا ترى في شوارعه منكرات أو معاصي أو مظالم.

إنَّ قطب المجتمع الإسلامي هو التعاون على الخير حيثما كان ومحاربة الشر كائنًا فاعله من كان، وقد لخصت سورة «العصر» خصائص المجتمع الإسلامي في إعجاز لا مثيل له، وتلك الخصائص أربع يجمعها قوله تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: ١- ٣].

ومعنى هذا أن صرح المجتمع الإسلامي يقوم على الإيمان بالله، وعلى العمل الصالح، وعلى التزام الحق في كل قول أو عمل، وأخيرًا على الصبر والثبات في وجه أعداء الحق وأهل الباطل، وللرسول الله ﷺ حديث في قمة التصوير البلاغي يوضح فيه أن أمة محمد يجتاحها خطر الهلاك إذا اكتفى كل مسلم بإصلاح نفسه ولم يأبه بردع المجرمين عن جرائمهم، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري: «**مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ الله وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا**».

لقد شبَّه الرسول ﷺ المجتمع المسلم بالسفينة، وذكر أصناف الناس، وبدأ بالذي يبدد ماله في الموبقات، والمجاهد الذي يجاهر ويفاخر بالمعاصي، والمفسد الذي يعيث في مجتمعه وقاحة وسوء أدب أقول هؤلاء جميعًا لا بدَّ أن يمنعوا بشتى الوسائل؛ لأن المجتمع كالسفينة

في البحر إذا خرب أي جزء منها حل الدمار بكل من فيها، وقد روى أصحاب السُّنن أن أبا بكر ﷺ حين رأى إحجام الناس عن تغيير المنكر قام خطيبًا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنكم تقرءون هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ [المائدة: ١٠٥]».

وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعذاب**»، وبذلك أفهمهم أبو بكر أن تلك الآية من سورة المائدة معناها: إذا استنفد المؤمن كل طاقاته في تغيير المنكر فلم يستطع تغييره، ورأى المجتمع الإسلامي يسوده شح مردٍ وهوى متبع؛ فليعلم عندئذٍ أن الهدى هدى الله، وأن كل إنسان مسئول عن عمله فقط، وأنه لا يضره من ضلَّ إذا اهتدى هو والتزم بأمر الله.

وفي هذا الباب أحاديث مخيفة تنذر الأمة بمصير مظلم إذا تركت أصحاب المنكرات يخربون المجتمع دون أن يؤدبوا ويؤخذ على أيديهم، قال رسول الله ﷺ: «**لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم**»، أنذر النبي ﷺ أن الأمة المسلمة إذا هابت من الظالم أن تقول: أنت ظالم، فقد تودع منها أي أصبحت وكأنها لا وجود لها.

- جاء في سنن ابن ماجه وروى النسائي نحوه أن رسول الله ﷺ قال: «**أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند ذي سلطان جائر**».

- وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دخل على زينب -رضي الله عنها- فزعًا وهو يقول: «**وَيْلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قَدْ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِهِ، وَحَلَّقَ بِإِصْبَعِهِ الْإِبْهَامِ وَالَّتِي تَلِيهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**».

- وفي سنن ابن ماجه أن رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَحْقِرْ أَحَدُكُمْ نَفْسَهُ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، كَيْفَ يَحْقِرُ أَحَدُنَا نَفْسَهُ؟ قَالَ: «**يَرَى أَمْرًا لله عَلَيْهِ فِيهِ مَقَالٌ، ثُمَّ لَا يَقُولُ فِيهِ** (يعني الخوف من العباد)، **فَيَقُولُ اللهُ ﷻ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَا مَنَعَكَ أَنْ تَقُولَ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فَيَقُولُ: خَشْيَةُ النَّاسِ. فَيَقُولُ: فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى**».

- وقد نهانا رسول الله ﷺ أن نصادق الكفار ونتخذهم أولياء وأعوانًا نؤاكلهم ونشاربهم، وحذَّرنا أن بني إسرائيل استحقوا اللعنة من أنبيائهم؛ لأنهم كانوا لا يتناهون عن منكر، ولأنهم كانوا يصادقون الفاسقين، روى أبو داود والترمذي أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابن مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۞ تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ۞ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِالله والنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ [المائدة: ٧٨- ٨١]، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي الْمَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهُمْ فَلَمْ يَنْتَهُوا، فَجَالَسُوهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ، فَضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ وَلَعَنَهُمْ ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾**».

أولاً: من آداب من يتصدى للدعوة إلى الله ونشر الصالحات ومقاومة المفاسد أن يخلص العمل لوجه الله ضاربًا صفحًا عن المطامع والشهرة، وأن يبدأ بنفسه فيحليها بكل خلق كريم ويرسم بسلوكه القدوة للمتقين، وألا يكون كمن قال الله فيهم: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**﴾؟ [البقرة: ٤٤].

ثانيًا: أن يكون الداعية إلى الله عالمًا علمًا يقينًا بالحكم وألا يخبط في الآداب والأحكام بغير علم ولا هدى ولا دليل.

ثالثًا: أن يكون الداعية ذكيًا مقدرًا للمواقف منوعًا للأساليب على حسب حال الذين يدعوهم إلى الله، وعلى حسب إمكاناته فقد يدعو باللسان، وقد يغير المنكر باليد إذا كان من أهل السلطة، ولكن إذا رأى الخطر الشديد بدون مردود مفيد فإن الله يعذره إذا أنكر المنكر بقلبه، ولكن إذا ملك الداعي سلطانًا؛ فعليه ألا يخشى في الله لومة لائم.

رابعًا: إذا كان من تدعوه إلى الخير حاكمًا ذا سلطان فلا بدَّ أن يكون الداعية عظيم البلاغة، وأن يخلص الدعوة لله دون نظر إلى رغبة أو رهبة، وألا يجعل النصيحة على ملأ بل يسر إسرارًا مؤدبًا حتى لا تتحول الدعوة تشهيرًا، وأن يتوِّج كل ذلك بعفة اللسان وحلاوة الموعظة وسعة الصدر ومكارم الأخلاق، كما قال الله تعالى لنبيِّه في سورة «النساء»: ﴿**فَأَعْرِضْ**

﴿عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣].

خامسًا: الرفق في الدعوة هو جماع الأمر، وقد اشتهر الدعاة من السلف بهذا الأمر قال الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، ومن ذلك أن أبا الدرداء ﷺ مرَّ على رجل قد أصاب ذنبًا والناس يسبونه فقال لهم: أرأيتم لو وجدتموه في قليب ألم تكونوا مستخرجيه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوا أخاكم واسألوا الله العافية، قالوا: أفلا تبغضه؟ فقال: إنما أبعض عمله، فإذا تركه فهو أخي.

ومرَّ أحد السلف على رجل يجر إزاره فهمَّ بعض من كانوا معه أن يأخذوه بألسنتهم، فقال لهم الداعية: دعوني أكلمه ثم دنا منه وقال له: يا ابن أخي، إنَّ لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قال: أحب أن ترفع من إزارك، فقال الرجل: نعم، ورفع إزاره، فقال لأصحابه: لو شتمتموه وآذيتموه لشتمكم.

ودعي الحسين ﷺ إلى عرس، فجيء بطبق من فضة فيه خبيص، فقلب الطبق على رغيف وردَّه على صاحب العرس، وبذلك وعظ وهو ساكت.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

***

من أحاديث الآداب

الحذر من الشيطان

المؤمن في حرب مستمرة مع الشيطان؛ لأن الشيطان أعلن عداءه لبني آدم، وتوعد أن يحتنك ذريته، فهو يستفزهم إلى الشر بصوته، ويجلب عليهم بخيله ورجله، ويشاركهم في الأموال بالسحت والحرام، وفي الأولاد بالفتنة والعقوق، ويعدهم مكذوب الوعود وغرور الأماني، لكن الله ﷻ حصن عباده المؤمنين ضد ذلك العدو الغادر اللدود فهو ﷻ يثبتهم بالقول الثابت والعمل الصالح والكلم الطيب حتى يخنس الشيطان عنهم ويخسأ عن رحابهم، وينهزم أمام قوة إيمانهم تحقيقًا؛ لقوله تعالى مخاطبًا إبليس في سورة «الإسراء»: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً**﴾ [الإسراء: ٦٥].

وما دامت المعركة خطيرة تهدد أعلى ما يملكه الإنسان ألا وهو دينه وتوحيده؛ فقد أحببت أن أنبِّه إلى أمور حول طبيعة الشيطان ووسائله وأسلحته وطرق مقاومته، وقد استفدت من كتاب لأخينا الشيخ سليم الهلالي سمَّاه: (مقامع الشيطان)، ونشرته مكتبة ابن الجوزي -جزاهم الله جميعًا خير الجزاء.

أولاً: يتبع الشيطان مع الإنسان وسيلة الاستدراج خطوة بخطوة، ومن خطواته أنه ينسي الإنسان نفسه، ويغيب عنه ذكره، ثم يزين له المعصية بطرق مختلفة منها الوسوسة والفتنة وأكبر فتنة تأتي المرء من المرأة، يقول النبي ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ رَأَى امْرَأَةً تُعْجِبُهُ؛ فَلْيَقُمْ إِلَى أَهْلِهِ، فَإِنَّ مَعَهَا مِثْلَ الَّذِي مَعَهَا**»، وهي طريقة ناجحة لإطفاء شهوة الحرام التي يزينها الشيطان للإنسان وينسيه عواقبها الوخيمة، قال الله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ [طه: ١١٥].

ثانيًا: ومن سائل الشيطان التخويف والتسويف والحيرة فإذا أوقع الإنسان في مصيدته ختمها بالتبرؤ والشماتة، وكل هذه ذكرها الله ﷻ في محكم كتابه.

يقول الله تعالى في سورة «آل عمران»: ﴿**إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ**

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، ويقول في الذين سوفوا إيمانهم بعد أن تجلت لهم الحقائق: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، ثم هو يؤزهم إلى المعصية أزًّا، أي: يسوقهم إليها في هياج وسعر حتى إذا عصوا وكفروا تبرأ منهم وشمت فيهم وناداهم وهم في هاوية العذاب: ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

ثالثًا: وللشيطان وسائل شيطانية وأسلحة يثخن بها عقل الإنسان وعقيدته منها الجدال الذي يقول فيه الله -تعالى- في سورة «الأنعام»: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ومنها التحريش بين المسلمين بالدس والوقيعة والوسوسة والغضب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [المائدة: ٩١].

ومنها التبذير؛ فالمبذرون إخوان الشياطين؛ لأن السرف يفتح أبواب الشهوات على مصاريعها.

ومنها تسميته الأشياء بغير أسمائها كما تسمى الرشوة: هدية، وكما يسمَّى الغلول والاختلاس: ذكاءً، وكما يسمَّى الزنا والرقص: حضارةً وتقدُّمًا، وخلف هذه المسميات يجد الشيطان أخصب مرتع وخيم.

ومن وسائل الشيطان (تعري المرأة وإغراؤها بإبراز مفاتنها) تحت شعار الحرية، وأكثر من يدعو لذلك أهل الزنا والمعاصي من رجال الفكر المنحرف ومن الشعراء وأهل الغوايات، قال الله تعالى: ﴿الشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤]، ويقول ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

ومن وسائل الشيطان الغناء والتمثيل الساقط، وما يكتنف دور اللهو من معاصي الله بالخمر والقمار والتعري واجتماعات الساقطين والمنحلين والمنحرفين.

أما السلامة الوقائية من الشيطان؛ فتكون أولاً: بتقوى الله ومخافته والإخلاص له، يقول

الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١].

ومن الأساليب الواقية: صلاة الجماعة والحرص عليها، وذلك لأن العبد لا يكاد ينصرف من صلاة حتى يحل وقت الصلاة التالية، وبذلك يظل العبد على صلة بربه فيخزى الشيطان وينقلب حسيرًا.

ومنها: الجماعة في السفر، ومنها: مجالس الصالحين فتلك كلها مقامع للشيطان تهزم مؤامرته وتشيع في المسلمين التحاب في الله؛ ففي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ قال للمسلمين حين رآهم يتفرقون خلال السفر في الشعاب: «**إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية من الشيطان**»، فلم ينزل بعد ذلك منزلاً إلا انضم بعض المسلمين لبعض حتى يقال لو بسط عليهم ثوب لعمهم.

ومنها: الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم في المواطن التي يتدخل فيها في أحوال الإنسان، ويكون ذلك عند تلاوة القرآن الذي هو شفاء لما في الصدور، وعند السحر يقرأ المعوذتين والآيات التي تشتمل على كلمة التوحيد، وعند دخول المسجد يقول: «**أعوذ بالله العظيم وبوجهه الكريم وسلطانه القديم من الشيطان الرجيم**»، وتكون الاستعاذة أيضًا عند الوسوسة في الصلاة وعند الغضب وعندما يرى الإنسان في منامه ما يكره، وعند العين والحسد وكذلك عند احتدام الجدل وخصوصًا إذا كان المجادل ممن يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

هذا؛ والبسملة كلمة مباركة تفتح بها الأعمال المباركة كالقراءة ومجلس العلم، كما تسمي عندما تعثر الدابة، وعند خروجك من بيتك، وعند الجماع، وما أجمل أن يحفظ المؤمن سورة «البقرة» ومنها آية الكرسي، وكذلك سورة «الإخلاص» والمعوذتين.

رابعًا: ومما يطرد الشيطان ويحسره سجود التلاوة؛ لأن الشيطان أمر أن يسجد فعصى وأمر الإنسان المؤمن فأطاع، كما يطرده الأذان والإقامة وتسوية صفوف الصلاة وتراصها؛ لأنه يدخل من بين الفُرَج، كما أن سجود السهو من طاردات الشيطان

على أن أعظم طارد له هو ذكر الله ولذكر الله أكبر.

ومما يجدر بنا ذكره أن للشيطان أوقاتًا يضعف فيها وتسهل عندئذٍ مهاجمته؛ كشهر رمضان وأيام الجمع، وله أوقات يهيج فيها الشيطان ويحسن عندئذٍ أن نحبس الأولاد والأهل عن الخروج حتى لا يتعرضوا لكيده، قال رسول الله ﷺ: «**قيلوا؛ فإن الشياطين لا تقيل**»، وقال: «**احْبِسُوا صِبْيَانَكُمْ حَتَّى تَذْهَبَ فَوْعَةُ الْعِشَاءِ؛ فَإِنَّهَا سَاعَةٌ تَخْتَرِقُ فِيهَا الشَّيَاطِينُ**».

***

obeikandl.com

من أحاديث الآداب

اتباع الهوى والابتعاد عن طريق الحق

من آداب المؤمن أن يكون دائمًا في صف الحق ومع جنوده من أهل العقل والمنطق والتفكر والعدل، وهو بهذا الأدب الرفيع يمقت الهوى والغوغائية ورعونة العواطف، المؤمن لا يمكن أن يكون غوغائيًا؛ لأن معناها الركض الأعمى وراء الهوى دون انعطاف إلى منطق العقل ونداء الحق، وأصل الغوغائية كما جاء في «لسان العرب»: الجراد حين يخف للطيران، ثم استعيرت للسفلة من الناس والمتسرعين إلى الشر، وأطلقت أيضًا على اللغط والصياح والضوضاء، ولا تكون الغوغائية إلا من منطلقين من ضعف التفكير وقلة المحصول.

يكون طالب العلم غوغائيًا إذا ضعف تحصيله فيلجأ إلى ستر ذلك باللغط والادعاء الأجوف، ويكون الطالب في مدرسته غوغائيًّا إذا أعجزه الاجتهاد والتفوق فيلجأ إلى الحيل والأعذار والكذب، ويكون الحاكم غوغائيًّا إذا لم تكن لديه إنجازات بالأرقام فيلجأ إلى إنجازات بالأوهام والتصفيق وضوضاء الجمهور ينتزعها بالخطب الطويلة الجوفاء والادعاءات المخدرة المزعومة.

ولقد ابتليت أمتنا الإسلامية في العصور الحديثة بمراحل وفترات من الغوغائية لجأ فيها بعض المتسلطين إلى انفعالات الغوغاء فخاطبوا الهياج ولم يستطيعوا مخاطبة العقول؛ لأنها لا تؤمن إلا بالمآثر الملموسة والأعمال الماثلة والإنجازات المرئية.

والحقُّ أن شيئًا كثيرًا قد ضاع على أمتنا في غياب الفكر الواعي المتبصر والمنطق الإحصائي الدقيق فصرخت كثيرة من جماهيرنا بالحرية وهي في القيود وهتفت بالنصر تحت سنابك اليهود وعربدت بالدخل القومي وهي في مخالب الإفلاس، ولو أخلدت إلى الحق والوقائع والدين والأرقام لما انطلت عليها عربدات الغوغائيين ولا ادعاءات الانتهازيين.

المؤمن لا يغلبه الهوى حتى وهو في أشد حالات الانفعال، فلو دعي مثلاً إلى شهادة حق في قضية، فلما وصل إلى محكمة إذا هي بين خصم من ألد أعدائه وبين أبيه الذي قضى بهجة العمر في تربيته لشهد بالحق دون النظر إلى القرابة أو العداوة لخصمه.

المؤمن في هذه الحال يشهد مع الحق حتى ولو على نفسه أو الوالدين والأقربين؛ لأن الحق فوق القرابة وفوق كل هوى من أهواء النفس، ولا غرو فالمؤمن منهجه القرآن، والقرآن حرب على الهوى، وكيف لا يحاربه وهو نقيض الحق، يقول الله -تعالى- في سورة «النساء»: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

ولما عرض رسول الله ﷺ دعوة الحق على أساطين الشرك رفضوا أن يفكروا ورفع كل منهم عقيرته بصراح غوغائي فمن قائل شاعر، ومن قائل ساحر أو مجنون، ومن قائل كاهن كاذب فدعاهم رسول الله ﷺ إلى واحدة وهي أن يتفكروا فقط وينبذوا الهوى والغوغائية وسيهديهم تفكيرهم إلى أن محمدًا نذير وليس مجنونًا قال الله -تعالى- في سورة «سبأ»: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

المؤمن يأبى عليه دينه وشرف عقله أن يكون عبدًا لهواه ينعق مع كل ناعق، وينخدع بكل بارق، كلما قرأت كتاب الله وقفت مليًا عند كل حوار يدور بين الرسل وأقوامهم وأتأمل في تدبر مقدار الأدب والموضوعية والتعقل في ألفاظ الأنبياء ومقدار الغوغائية والهوى وانعدام المسئولية في ردود القوم في سورة «الشعراء» على لسان نوح عليه السلام: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۞ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ۞ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فيرد القوم على نوح بغوغائية لا منطق فيها ولا مسئولية: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، ويختمون حوارهم بطرح همجي: ﴿لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦]، ويقول لهم هود عليه السلام: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ۞ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ۞ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٣٢- ١٣٥]، فيردون ردًّا غوغائيًّا لا أثر فيه للمنطق: ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ۞ إِنْ هَذَا إِلاَّ خُلُقُ الأَوَّلِينَ ۞ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]، ويقول لهم صالح عليه السلام: ﴿وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۞ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٥١، ١٥٢]، فيردون

عليه: ﴿**قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ۞ مَا أَنتَ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وفي سورة «الأعراف» يقول لهم لوط: ﴿**أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۞ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ**﴾ [الأعراف: ٨٠- ٨١].

ولما رأى مشركو قريش أن القرآن يحاورهم بمنطق العقل المستنير ورأوا أنهم لا يملكون من وحي خرافاتهم ما يردون على ذلك الحوار الكريم لجئوا إلى اللغو والصراخ وسد الآذان وأوصى بعضهم بعضًا إذا سمعوا القرآن أن يتصايحوا بأي مهاترة لتعلو أصوات غوغائيتهم على منطق القرآن، وإلى هذا أشار ربنا ﷻ في سورة «فصلت»: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾ [فصلت: ٢٦]، وفي الأثر: «**آفة الدين الهوى**»، وروي عن الرسول ﷺ أنه قال: «**طاعة الشهوة داء وعصيانها دواء**».

ومن كلام عمر ﷺ: «اقدعوا هذه النفوس عن شهواتها؛ فإنها طلعة تنزع إلى شر غاية».

وكان عليٌّ ﷺ يقول: «أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى، وطول الأمل؛ فاتباع الهوى يصد عن الحق، وطول الأمل ينسي الآخرة».

وقال الشعبي -رحمه الله: «إنما سمِّي الهوى؛ لأنه يهوي بصاحبه».

ومن شعر ابن المعتز:

وما يردع النفس اللجوج عن الهوى ... من الناس إلا حازم الرأي كامله

اللهم جنِّبنا والإخوة القراء دواعي الهوى ومزالق الردى، وأن يجعل العقل لنا قائدًا وإلى الإيمان مرشدًا.

***

من أحاديث الآداب

التوكل على الله

كثيرون من المسلمين قد لا يميزون بين التوكل على الله وبين الاتكالية، فالتوكل معناه أن تصدق العزم وتتخذ الأهبة وتعد للأمر عدته بالاجتهاد والدأب، ثم بعد هذا تتوكل على الله معتقدًا أن الخير بيده وأن كل شيء بقدره، وأن التوفيق ونجاح المساعي لا يكون ألا بأمر الله وإرادته مهما أعمل المرء حيلته ومهما تذرع بحوله وقوته، وأما الاتكالية؛ فهي أن ينام المرء غارقًا في كسله ويتمنى على الله الأماني، فيقول: أنا رجل متوكل على الله وسيأتيني رزقي.

ولقد علَّمنا رسول الله ﷺ إذا أقدمنا على أي عمل أو مشروع أو أمر مهم أن نتخذ الخطوات التالية:

أولاً: نتأكد أن هذا العمل نافع لنا في المعاش والمعاد، وأنه بعيد عن الحرام.

ثانيًا: أن نستعين الله فنتخذ كل الوسائل الموصلة إلى النجاح.

ثالثًا: أن نتسلح بالعزم فلا نعجز ولا نكل ولا نكسل، بل نداوم إلى نهاية المسيرة.

رابعًا: أن نرضى بما يقدره الله فلا نظهر الندامة أو نقول: «لو».

وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى الله مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلاَ تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيءٌ فَلاَ تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**».

وما أجمل المثل الذي ضربه رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الذي رواه الترمذي: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى الله حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا تُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**».

هذا المثل من أجمل التشبيهات التي تصوِّر حقيقة التوكل، فقد ضربه النبي الكريم من سلوك الطير وهي كما هو معروف لا تقعد كسلانة في أعشاشها وتنتظر أن يأتيها الرزق، لكنها تستيقظ قبل طلوع الشمس، فتسبح الله بتغريد الصباح، وتخرج من أعشاشها منطلقة في فضاء الله، ثم تمضي النهار تنقيرًا في الأرض وبحثًا عن الحبوب وصغار الديدان والثمار والأعشاب

حتى تملأ بطونها التي كانت قد أصبحت خالية، ثم تعود إلى فراخها وفي حواصلها غذاء الفراخ.

هذا هو حق التوكل إنه السعي الجاد وراء الرزق والعمل المتصل للكسب والنشاط الدائب في عمل اليد، حقًا إن الطير تخرج جائعة في الصباح لكنها تنهض للعمل مبكرة واثقة برزق الله فيرزقها جل شأنه؛ لأن عليه رزق خلقه كما جاء في سورة «هود»: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ [هود: ٦].

إنَّ المؤمن لا يكف عن السعي ولا ينقطع عن الجد ولكنه لا يتجاوز هذا إلى الجزم بأنه سينجح، إن الطالب المتوكل على الله هو الذي يقضي كل عامه جدًا واجتهادًا ثم إذا سئل: هل ستنجح؟ يقول: النجاح أولاً وأخيرًا بيد الله. أما ذلك الطالب الذي يقضي عامه في العبث اللهو والإهمال ثم يقول: الله هو الذي سينجحني؛ فذلك لم يعرف معنى التوكل.

إنَّ لله جل شأنه سُننًا ليس لها تغيير ولا تبديل ولا تحويل، وهي أن من جد وجد، ومن زرع حصد، ومن يعمل مثقال ذرة خيرًا لله وأنه ﷻ لا يضيع عمل عامل، وهو يطلب من المؤمن أن يبذل كل جهده وينتظر التوفيق والنجاح منه ﷻ.

ولما ذكر رسول الله ﷺ لأصحابه أن سبعين ألفًا منهم يدخلون الجنة بغير حساب سئل عنهم فقال: «**هم الذي لا يرقون ولا يسترقون، ولا يتطيرون وعلى بهم يتوكلون**»، وإنما حذر من الرقية والاسترقاء؛ لأنها قد تحمل الإنسان على أن يقصد المشعوذين، والشعوذة ضد العمل الجاد والتوكل، كما ذم عليه الصلاة والسلام التطير؛ لأنه ينال من معنوية الإنسان ويقعده عن العمل بحجة أنه لن يوفق، أما التفاؤل فمطلوب لأنه يقوي النفس ويملأها أملاً في وجه الله، وانتظارًا للفرج القريب، وتشجيعًا على الجد والاجتهاد والتوكل.

ولقد كان رسول الله ﷺ دائم الأهبة متصل النشاط والهمة لكنه كان يعلن أنه لا حول لهو ولا قوة إلا بالله، وأن توكله على الله وتوجهه إليه. وأن الحول والقوة والطول إنما تستمد من الله، وأنه تعالى يبده الخير، روى الترمذي أنه -عليه الصلاة والسلام- كان إذا خرج من بيته قال: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**».

إنه عليه الصلاة والسلام عازم على ترك الضلال والزلل والظلم والجهل لكنه سيبذل جهده في تركها ويعلن توكله على الله؛ لأنه لا يهدي لأحسن الأخلاق إلا هو، وجاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن أحب أن يكون أقوى الناس؛ فليتوكل على الله**»، وذلك لأن التوكل عليه يشعر المتوكل أن قوة الله فوق كل قوة، وأن إرادته فوق كل إرادة، وأن كل من في الأرض لو اجتمعوا ما نفعوا ولا أضروا إلا بإذنه، وهذا الشعور يملأ قلب المؤمن ثقة بتوفيق الله ونصره.

وما أجمل أن يقول المؤمن إذا خوف بسطوة العباد وسلاح العبيد أن يقول: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، ولما لحق المسلمون المشركين في غزوة حمراء الأسد لقي المسلمون من خوَّفهم وقال لهم: إن قريشًا قد جمعت لكم جموعًا هائلة، فلم يزيدوا على أن قالوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، ولما أراد المشركون أن يلقوا إبراهيم عليه السلام في النار خوَّفوه من حرها وحرارتها؛ فقال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، وهذه قمة التوكل على الله.

وكان عليه الصلاة والسلام يحثُّ المسلمين أن يستصحبوا التوكل على الله أينما توجهوا معتقدين أنه الحي وغيره يموت، وأنه إليه المرجع والمآب؛ ففي الحديث المتفق عليه أن رسول الله ﷺ كان يقول: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**».

***

كلمة شكر

أســـــتاذُنا الشَّـــــيخُ الجليـــــلُ عميـــــدُنا أحمـــــد فَـــــرَح
بكتابـــــه البحـــــر الطهـــــور وبعلمـــــه قلبـــــي انشرح
مرحـــــوم أدَّى الاختبـــــار في جنـــــة المـــــولى نجـــــح
في ذمـــــة الـــــرَّبِّ الغفـــــور ميزانـــــه فيهـــــا رجـــــح
فاهنـــــأ بمقعـــــدك الكـــــريم بـــــابُ الجنـــــان لـــــك انفـــــتح
وأتـــــتْ ملائكـــــةُ السَّـــــما في موكـــــب تحيـــــي الفـــــرح
رضـــــوان أقبـــــل باســـــمًا في كفـــــه اليمنـــــى قـــــدح
اشرب مـــــن النهـــــر الزكـــــي خمـــــرًا بـــــه المـــــولى ســـــمح
فـــــردوس يـــــا مِسْـــــكَ الختـــــام لعميـــــدنا أحمـــــد فـــــرح

تشرف بتدقيق هذا الكتاب ومراجعته

- حامد محمد إبراهيم عبد الله

- محمـــــــــد علي إبراهيم

* * *

obeikandl.com